العلمانيّون والإسلام

محمد قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

صدق الله العظيم

مقدمــة

يقوم العلمانيون منذ فترة بحملة واسعة ضد تحكيم الشريعة الإسلامية ، وضد الإسلاميين الذين يطالبون بتحكيمها ، ويحشدون جهودهم في ذلك كأنما يدرءون خطراً داهماً يوشك أن يدهمهم ، ويلوّحون في حملتهم بالديمقراطية بديلا من الإسلام ويرددون كثيرا في كلامهم كلمة " التعددية " وكلمة " الآخر " و " الحرية السياسية " و " تداول الحكم " .

ويعجب الإنسان من ذلك حين يعلم أن كثيرا من أولئك العلمانيين كانوا شيوعيين يوم أن كانت الشيوعية ذات سطوة وسلطان . فلما انهارت الشيوعية بالسرعة المذهلة التي انهارت بها ، لبس أولئك العلمانيون ثياب " الديمقراطية " وصاروا ينادون بها كأنهم من دعاتها منذ نعومة أظفارهم ! وقد كانوا في فترة اعتناقهم الشيوعية ينددون بالتعددية الحزبية ويرون فيها الفساد كله . فلما سقطت الشيوعية واحتاجوا إلى تغطية أنفسهم لبسوا ذات الرداء الذي كانوا يلعنونه بالأمس ويندِّدون به !

ويعجب الإنسان كذلك حين يراهم يعارضون تطبيق الشريعة بدعوى أن تطبيقها لا يتيح الحرية للأمة لكي تمارس " حقوقها السياسية " ولا يتيح " للمعارضة " أن تعبر عن مواقفها ، ولا يحترم " الآخر " .. بينما كانوا بالأمس من أشد أعوان الحكم العسكري الذي يكتم أنفاس الأمة ، ويسحق المعارضة سحقاً لا هوادة فيه ، ويفرض رأيه على الأمة فرضاً على طريقة الفرعون الذي كان يقول : (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) [١] ويجعل فكرة " تداول الحكم " جريمة منكرة لا تخطر إلا في بال الخونة المارقين ! ويملأ السجون والمعتقلات بألوف من الرجال والنساء والشباب والشيوخ ، ويعذبهم بما لامثيل له في التاريخ كله إلا في محاكم التفتيش !

---

[١] سورة غافر [٢٩] .

وربما يزول العجب – أو بعضه على الأقل – إذا أدرك الإنسان أن الذي يحرك العلمانيين أساساً هو كراهيتهم للشريعة الإسلامية ونفورهم من تطبيقها . ومن ثم يتخذون مواقفهم في الموقع الذي يهاجم الإسلام والإسلاميين ، بصرف النظر عن طبيعة ذلك الموقع وحقيقة أفكاره .. ولا يجدون في أنفسهم حرجا أن يغيروا مواقعهم من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، ما داموا في هذا الموقع أو ذاك يدخلون في زمرة قومٍ أعداءٍ للإسلام والإسلاميين ، ويشاركونهم في مهاجمة الإسلام والإسلاميين !

ولكنا نضرب صفحاً عن هذا كله ، وندخل مع العلمانيين في حوار هادئ جهد الطاقة ، نريده أن يكون علمياً بحتاً وموضوعياً بحتاً ، وأن نصل منه معاً إلى حقائق علمية وموضوعية تكشف الغبش الذي غشّى على كثير من الندوات التي قامت في الفترة الأخيرة بين العلمانيين والإسلاميين ، ولم تصل إلى شيء في النهاية ، لأنها كانت أقرب إلى الصراع الفكري منها إلى البحث الموضوعي ، وكان الوقت المخصص لكل متكلم دقائق معدودة لا تتسع لبحث حقيقي ، وقصارها أن تعرض وجهة نظر سريعة في جزئية من جزئيات الموضوع .

وسنفترض من أجل هذا الحوار الهادئ جهد الطاقة أن الناس جميعا مخلصون ، وأنهم يريدون الحق ويسعون إلى الخير على الرغم من اختلاف وجهات نظرهم ، ثم نبحث معاً بحثا موضوعيا في الدليل الذي يهدي إلى الصواب ، فإذا وجدناه التزمنا به ، ولم نحِدْ عنه ، متمثلين في هذا الحوار بالأدب الذي وجه الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتبعه مع مخالفيه ، مع ثقته عليه الصلاة والسلام أنه على الحق ، إذ وجهه أن يقول لهم : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) [(١)] ومتمثلين قوله تعالى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ [(٢)] وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ

(١) سورة سبأ [٢٤] .

(٢) أي حين اختلف الناس ولم يعودوا أمة واحدة على الحق كما كانوا في مبدإ الأمر .

أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [1] .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واهدنا بفضلك ورحمتك إلى سواء السبيل .

محمد قطب

---

(1) سورة البقرة [٢١٣] .

أوربا وتجربتها مع الدين

كانت تجربة أوربا مع " الدين " تجربة بئيسة إلى أقصى حد ..

كان الدين بالنسبة إليها ظلاما وجهلا واستبداداً وغلظة وانصرافاً عن عمارة الأرض (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..) [١] .

ووقر في حس أوربا من خلال تجربتها الخاصة أن هذا هو " الدين " ..

ولذلك نفرت منه ، ثم هاجمته وأبعدته عن واقع الحياة ، وحبسته في نطاق ضيق في ضمائر الناس ، إن بقي للناس ضمائر بعد أن أبعدوا عن الدين !

وأوربا في هذا معذورة من ناحية ، ولكنها – من ناحية أخرى – غير معذورة .

معذورة في النفور من " ذلك الدين " والسعي إلى تقليص نفوذه ونزع سلطانه وحبسه في أضيق نطاق ممكن ... بل نبذه والخروج عليه جهرة .. ولكنها غير معذورة في أن يكون هذا موقفها من " الدين " بعامة ، الصحيح منه وغير الصحيح !

* * *

لم تعرف أوربا دين الله الحقيقي الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام ، إنما عرفت صورة محرفة منه ، هي التي أذاعها بولس " رسول الأمم " ، ونشرها في ربوع الأرض ، وبخاصة في أوربا .

يقول المؤرخ البريطاني " ويلز " :

---

[١] سورة الحديد [٢٧] .

" وظهر للوقت معلم آخر عظيم ، يعده كثير من الثقاة العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية [١] ، وهو شاول الطرسوسي أو بولس .. والراجح أنه كان يهودي المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك [٢] ، ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود ، بيد أنه كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهيلينية .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلنستية [٣] ، وبأساليب الرواقيين [٤] ، كان صاحب نظرية دينية ومعلماً يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل .. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثرائية ، [٥] إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية . ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنباً إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تظهر قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانا لله ، كفارة عن الخطيئة [٦] . فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية . أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح ، وسفك الدماء لاسترضاء الإله " [٧] .

ويقول أيضا :

" وفي أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أي التداخل والمزج بين الآلهة والعقائد المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة

---

[١] أي للدين الذي عرفته أوربا .

[٢] كما ينكر بعض الكتاب اليهود شخصية عبد الله بن سبأ الموازية في عملها لشخصية بولس ، فهذا دخل النصرانية ليفسدها من داخلها ، وذاك دخل الإسلام ليحاول إفساده من الداخل .

[٣] مدارس الفلسفة الإغريقية وخاصة مدرسة الإسكندرية .

[٤] مدرسة فلسفية أسسها الفيلسوف زينون مبنية على الزهد في متاع الحياة الدنيا وعدم المبالاة بلذائذ الحس وآلامه .

[٥] ديانة فارسية قديمة (عبادة مثرا إله النور)

[٦] أي القربان البشري .

[٧] كتاب " معالم تاريخ الإنسانية " ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ج ٣ . ص ٧٠٥.

المثرائية التي تكاد تضارعها في سعة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس ..

.. على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدرا أو يكاد .. إذ كان طبيعيا أن يجد المسيحيون في شخصية حورس (الذي كان ابنا لسيرابيس وهو سيرابيس في نفس الوقت) شبيها مرشداً لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا .. " [١] .

وتتضح من شهادة " ويلز " عدة أمور :

١- أن الدين الذي نشره بولس ليس هو الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام .

٢- أن بولس قد مزج الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام بالوثنيات القائمة يومئذ وخاصة الميثرائية التي أتى بها من فارس والهلنستية التي جاء بها من الإغريق والتثليث الذي جاء به من الديانة المصرية القديمة .

٣- أن أهم ما كان في الدين الذي جاء به المسيح هو " الميلاد الجديد للإنسان " وهذه سمة الرسالات السماوية جميعا ، التي تتنزل لتخليص البشر من أوهامهم الوثنية وانحرافاتهم ، وتقدم العقيدة الصحيحة لهم ، فتمنحهم ميلاداً جديداً ينعتقون فيه من أغلال الوهم ، وعبودية بعضهم لبعض ، ويرتفعون به إلى الوضع اللائق بهم : عباداً لله وحده ، متحررين من كل عبودية زائفة لغير الله .. وأن هذا " الميلاد الجديد للإنسان " هو الذي طمسته ديانة بولس ، فأعادت الناس إلى " الديانة القديمة " ديانة الكاهن والمذبح .. أي الديانات الوثنية التي كانت قائمة قبل الميلاد الجديد ..

ويقول برنتن :

---

[١] المرجع السابق : ج ٣ ص ٧٠٨ – ص ٧٠٩ .

" إن المسيحية الظافرة في مجمع نيقية – وهي العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم – مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل [١] . ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً لا بأن مسيحية القرن الرابع [٢] تختلف عن المسيحية الأولى فحسب ، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتاً " [٣] .

وهي شهادة واضحة لا تحتاج إلى تعليق .

ويقول رينان الفيلسوف الفرنسي :

" إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام . ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهدالقديم [٤] . وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره ، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحي فأفسده . ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس . وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فخسر صفته الإلهية الكمالية ... وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون المسيح إلها دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار .. مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله " [٥] .

---

[١] أي المسيحية الأولى المنزلة من عند الله كما جاء في كلام الكاتب في السطور التالية .

[٢] أي المسيحية التي عرفتها أوربا واعتنقتها .

[٣] أفكار ورجال تأليف جرين برنتن ترجمة محمود محمود ص ٢٠٧ من الترجمة العربية .

[٤] يرجع رينان ما أدخله بولس من الفساد على دين المسيح عيسى عليه السلام إلى أنه لم يفهم تعاليم المسيح ، ونحن نرجح أن المسألة لم تكن عدم الفهم ، إنما كانت الخلط المتعمد .. ومع ذلك فلو فرضنا جدلا أن المسألة نشأت عن عدم الفهم ، فتبقى الحقيقة قائمة : أن دين بولس ليس هو الدين المنزل من عند الله .

[٥] عن محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٥ .

ويتضح من شهادة رينان :

١- أن بولس كان المفسد الأول والأكبر لتعاليم المسيح عليه السلام .

٢- أنه ألقى على الدين الجديد من عند نفسه ما لم يكن في الدين المنزل من عند الله .

٣- أنه بعمل بولس وغيره من الشراح والمفسرين فقد الدين المنزل من عند الله صفته الإلهية الكمالية .

* * *

نعم .. لسنا نحن المسلمين الذين نقول إن الدين الذي اعتنقته أوربا لم يكن دين الله المنزل على عيسى عليه السلام ، إنما يقوله مؤرخهم وكتابهم ، ويقوله كل من يعرف حقائق التاريخ .

ولقد كان مدى التحريف هائلاً جداً في ذلك الدين الذي اعتنقته أوربا وظنت أنه دين الله .

ولم يكن التحريف في مجال العقيدة وحدها – وهو خطير في ذاته – ولكنه وقع في أمر آخر لا يقل خطرا عن العقيدة ، هو فصل العقيدة عن الشريعة ، وتقديم الدين للناس كأنه عقيدة فقط بغير تشريع !

وقد كان لهذا آثار بالغة الخطورة في حياة أوربا .. السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية .. وفي كل اتجاه .

لقد أشار " ويلز " إلى أن الدين قد تحول على يد بولس من بساطته وصفائه الذي جاء به عيسى ابن مريم إلى دين " المذابح والكاهن " الذي كان قائما في الديانات الوثنية السابقة .. وذلك حق .. وهو ذو صلة بالتحريف الذي أحدثه ذلك اليهودي المتنصر الذي دخل النصرانية ليفسدها من الداخل [١] ، كما فعل عبد الله بن سبأ بعد ذلك بعدة قرون حين دخل الإسلام ليحاول إفساده

[١] أشرنا إلى شاول وقصة دخوله في النصرانية في كتاب " رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر " ص ٧٦ ويراجع في ذلك كتاب " محاضرات في النصرانية " لمحمد أبو زهرة .

من الداخل ، ولكنه لم ينجح كما نجح شاول من قبل ، لأن الله تكفل بحفظ رسالته الخاتمة ، ببينما وَكَلَ حفظ الرسالات السابقة للبشر فضيعوها :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ **بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** ...) [١] .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [٢] .

وفرق كبير بين حفظ الله واستحفاظ البشر . فالكتاب الذي تكفل الله بحفظه قد بقي كما أنزل بغير تحريف ، فظل قائما ليطبق في واقع الأرض ، وليرجع الناس إليه كلما همّ أحد أن يحدث تغييرا في أصول الدين ، بينما حرفت الكتب الأخرى التي وكل حفظها إلى البشر ، وسهل على أصحاب الأهواء – ومن بينهم ذلك اليهودي المتنصر – أن يحدثوا في دين الله ما ليس فيه ، كما تبين من شهادات الذين استشهدنا بهم آنفا من الكتاب النصارى أنفسهم .

وكما قلنا لم يكن التحريف مقصورا على العقيدة (تأليه عيسى ، وادعاء بنوته لله سبحانه وتعالى ، وضم إله ثالث إليهما ليصبح الإله ثلاثة في واحد : الأب والابن وروح القدس) إنما أضيف إليه فصل العقيدة عن الشريعة ، وتقديم الدين للناس عقيدة بلا شريعة ، تحت شعار لا سند له من دين الله المنزل ، قوامه " أدِّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! " [٣].

ومن شأن الدين المحرف على هذا النحو أن يتحول علماؤه – أو رجاله – إلى كهنة ، وأن يتحول الكهنة مع الزمن إلى وسطاء بين البشر وبين الله ، فيكون لهم سلطانٌ طاغٍ على أرواح الناس ..

---

[١] سورة المائدة [٤٤] .

[٢] سورة الحجر [٩] .

[٣] أشرنا إلى هذه المقولة المنسوبة للمسيح في كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " ص ١٦ ، وقلنا إنه يتعذر توثيق نسبتها إلى المسيح ، وإنها حتى لو ثبتت نسبتها إليه فلا يمكن أن يكون المقصود بها إعطاء قيصر حق التشريع من دون الله ، إنما يقصد بها عدم الدخول في معركة مع القيصر في فترة الاستضعاف .

إن لكل دين " رجالا " مهمتهم أن يتفقهوا في الدين ليعلموا الناس أمور دينهم التي لا يستطيعون أن يتعرفوا عليها بأنفسهم ، فيتعلموها على يد أولئك الذين تفقهوا فيها .

وحين يكون الدين عقيدة وشعيرة وشريعة ، وعلما للدنيا والآخرة ، يكون هؤلاء " الرجال " علماء وفقهاء ، ودعاة ومربين ، يربون بالقدوة الطيبة وبالعلم النافع الذي يبصّر الناس بآخرتهم ودنياهم .

أما حين يكون الدين عقيدة فقط بغير شريعة ، وعقيدة محرّفة على هذا النحو الذي لا يستطيع العقل أن يدركه أو يسيغه ، فهنا تنحصر مهمة أولئك " الرجال " في محاولة وصل الناس بربهم عن طريق الجانب الروحاني وحده من ذلك الدين ، دون الجانب الفكري أو العقلاني – لأنه أصلا لا يخضع للعقل – ودون الجانب الفقهي والتعليمي الذي يبصّر الناس بمنهج الحياة الصحيح الذي ينظم لهم جوانب الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية .. فينقلب أولئك " الرجال " بمقتضى ذلك الحال إلى " كهنة " يحتفظون " بالأسرار " .. الأسرار التي تستعصي على أفهام الناس ، ويصبحون – بمقتضى ذلك الحال أيضا – وسطاء بين العبد والرب ، لأن الطريق بين العبد والرب محفوف بتلك الأسرار العجيبة التي تحتاج إلى وسيط يفسرها للعبد ، وهو سالك طريقه إلى الله ، أو على الأقل يؤنسه في وحشة الطريق الغامض الذي يسلكه إلى الله ، فيطلق له إشعاعة روحية يحاول بها أن يهتدي في منعرجات الطريق !

وهكذا أصبح " رجال الدين " في النصرانية المحرفة " كهنة " كما أشار " ويلز " يقومون بالطقوس التعبدية ، ويحتكرون تفسير الوحي ، فأصبح لهم نفوذ هائل على أرواح الناس .. وكانت تلك هي نقطة البداية الخطيرة التي أدت إلى الطغيان الهائل الذي مارسته الكنيسة ورجال الدين ..

إن " الكنيسة " ذاتها بدعة مبتدعة لم يتنزل بها سلطان من عند الله .

ففي الديانة اليهودية التي نزلت لبني إسرائيل قسّم الرب الإله – كما تروي التوراة – مهام أسباط بني إسرائيل ، فعهد إلى اللاويين – أبناء لاوى بن يعقوب – بمهمة تطبيق الشريعة ، لا بوصفهم " كنيسة " ولكن بوصفهم قضاة يحكمون بين الناس بما أنزل الله في التوراة (بصرف النظر عما أحدثوه من تحريف في تشريعات التوراة ذاتها) وكان هذا أشبه بتنظيم إداري ، لا يجعل للاويين قداسة خاصة دون بقية بني إسرائيل .

ثم أرسل عيسى عليه السلام لبني إسرائيل مصدقا لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الذي كان قد حرم عليهم بسبب كفرهم ، كما جاء على لسانه في القرآن الكريم :

(وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [١].

فكان المفروض أن يجري الأمر في عهد عيسى عليه السلام على ذات النسق الذي جرى به على عهد موسى عليه السلام ، مع التعديلات التي وردت في التشريع . أما الكنيسة التي ابتدعتها النصرانية المحرفة فلا أصل لها في دين الله ولا سند .. إلا ذلك السند المزيف المنسوب إلى المسيح : " أنت بطرس . وعلى هذه الصخرة ابن كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه في الأرض يكون مربوطا في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السموات !! " [٢] .

إنها قولة لا تصدر عن نبي ! فعيسى نفسه – عليه السلام – لا يملك أن يربط شيئا أو يحله في الأرض إلا بإذن ربه ، وليس له أن يحل أو يحرم إلا بإذن الله :

---

[١] سورة آل عمران [٤٩ – ٥٠] .

[٢] إنجيل متى ، الإصحاح السادس عشر ، [١٩ – ٢٠] .

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً) [١] .

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) [٢] .

فإذا كان هذا هو حال المسيح نفسه – عليه السلام – فكيف يمنح هذا الحق الذي لا يملكه لنفسه – فيعطيه لبطرس أو غيره من البشر ، وهو حق الله الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد على الإطلاق ؟

ولكن الكنيسة نشأت واستمدت سلطانها الزائف من تلك الأسطورة المنسوبة للمسيح ، وأصبحت هي ذاتها إحدى تحريفات ذلك الدين !

ثم إن الكنيسة لم تكتف بسلطانها الروحي على قلوب الناس ، الذي يفهم من شعارها ذاته الذي رفعته منسوبا إلى المسيح : " أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .. إنما كان ذلك في وقت استضعافها في القرون الثلاثة الأولى ، حيث كان النصارى مضطهدين في عهد القياصرة الوثنيين الذين كانوا يحكمون الإمبراطورية الرومانية ويشتدون في اضطهاد النصارى وتعذيبهم ومطاردتهم حتى سكنوا الأديرة فراراً بدينهم من الاضطهاد الواقع عليهم ، الذي كان يصل أحيانا إلى حد إلقائهم إلى الأسود الجائعة لتفتك بهم أحياءً ، أو تعليقهم أحياءً على الصلبان حتى الموت ، وهي الطريقة التي كان الرومان يستخدمونها لتنفيذ أحكام الإعدام !

ولكن الكنيسة استأسدت بعد ذلك في القرن الرابع حين دخل قسطنطين في النصرانية لأهداف سياسية كما يقول المؤرخون ، ومكن للكنيسة ورجالها ، بعد أن أفلح في مزج دينها بأساطير الوثنية ، وأرضى بذلك النصارى والوثنيين معا ، وأمَّن سلطانه على الإمبراطورية التي كان النزاع الديني قد أوشك على القضاء عليها !

---

[١] سورة النساء [١٧٢] .

[٢] سورة المائدة [١٧] .

يقول درابر الأمريكي في كتاب " الدين والعلم "

" ودخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له يوما من الأيام .. وكذلك كان قسطنطين .. فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره ..

" وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا ، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين – النصراني والوثني – أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ! ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها ! " (١) .

وحين أصبح للكنيسة سلطان سياسي إلى جانب السلطان الروحي بدأ الطغيان !

إن الطغيان طبع بشري لا يحتاج أن نبحث له عن أسباب :

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى َ نْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (٢) .

إنما يمنع الناس من الطغيان شيء واحد من داخل نفوسهم ، هو تقوى الله . أو شيء واحد من خارج نفوسهم هو الخوف من قوة أخرى مكافئة لقوتهم أو زائدة عليها ! ولم يروا أحد من المؤرخين أن ضمائر " رجال الدين " كانت فوق مستوى الشبهات ، بل رووا أن كثيرا منهم كانوا على عكس ذلك ، فلما ملكوا السلطان السياسي فما الذي كان يمنعهم من الطغيان وهم يملكون من قبل ذلك السلطان الهائل على وجدان الناس ؟!

فرضوا سلطانهم على الأباطرة .. وأصدر البابا " نقولا الأول " بيانا قال فيه :

---

(١) نقلا عن كتاب " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " للسيد أبي الحسن الندوى " .

(٢) سورة العلق [٦ – ٧] .

" إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما قد ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل . ولذلك فإن البابا – ممثل الله على ظهر الأرض – يجب أن تكون له السيادة والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو محكومين " [1] .

وفرضوا لأنفسهم عشور أموال الناس ، فضلا عن تشغيل الناس سخرة في حقول الكنيسة التي سرعان ما أصبحت في ظل وضعها الجديد من ذوات الإقطاع ، وفضلا عن الإتاوات المفروضة على الأغنياء ، والوصايا المأخوذة بسيف الحياء حين يستدعى " الكاهن " لكتابة الوصية قبل الموت !

ثم فرضوا سلطاناً فكرياً رهيباً يحجر على العقول أن تفكر إلا بإذن الكنيسة ، وفي الحدود التي تسمح بها الكنيسة ! وقد كان هذا بالنسبة للكنيسة ضرورة لازمة منطقية مع التحريف الذي حدث في ذلك الدين ! فالإله الواحد الذي أصبح ثلاثة ، والثلاثة الذين هم في ذات الوقت واحد .. والعشاء الرباني الذي تتحول فيه كسرة الخبز إلى جسد المسيح ، وجرعة الخمر التي تغمس فيها كسرة الخبز إلى دم المسيح وتتجدد به الصلة بين العبد والرب حين يأكل الإنسان جسد المسيح ويشرب من دمه ! وكرسي الاعتراف الذي يصعد منه غفران " الكاهن " للذنوب إلى " الرب " فيعتمده في عليائه ، وصك الغفران الذي يكتبه الكاهن في الأرض فيدخل به الإنسان الجنة في الآخرة بغير حساب .. إلى عشرات من أمثال تلك " الأسرار ! " التي هي في حقيقتها أساطير .. كلها أمور لا يستطيع " العقل " أن يدركها ولا أن يتدبرها .. فماذا لو أعمل الناس عقولهم ، فاكتشفت عقولهم أن كل ما يقال لهم باسم " العقيدة " كلام لا يثبت للتمحيص ؟! ماذا يبقى للكنيسة عندئذ من سلطان على الناس ؟! الحل الأمثل لهذه الحال إذن أن تحجر الكنيسة على

---

[1] قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة عبد العزيز جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ج ١٤ ص ٣٥٢ .

العقل ، وأن يعتبر التفكير هرطقة تفضي إلى إهدار الدم في الدنيا ، والحرمان من الغفران في الآخرة !

ثم لما بدأت العلوم تتسرب إلى أوربا من العالم الإسلامي عن طريق الترجمة ، وتحدث ما يمكن أن نسميه " غزوا فكرياً إسلامياً " خاصة بعد هزيمة النصرانية أمام المسلمين في الحروب الصليبية [١] .. جن جنون الكنيسة ففرضت حجرا على " العلم " وأهدرت دم كل من يقول – يومئذ – بكروية الأرض ، أو أنها ليست مركز الكون ، وهو العلم الذي نقله علماء النصارى الأوائل من مؤلفات العلماء المسلمين ! [٢] .

ثم لما زاد تشكك النصارى في سلامة العقيدة التي تلزمهم بها الكنيسة ، وتحجر عليهم التفكير في شأنها تحت شعار : " آمن ولا تناقش " ، وزاد تمرد " المفكرين الأحرار " [٣] على سلطان الكنيسة الطاغي ، ابتدعت الكنيسة آخر ما رمت به الناس من فنون الاضطهاد ، وهو محاكم التفتيش ، بكل بشاعاتها التي تقشعر لها الأبدان .

يقول " ويلز " :

" شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة هي محكمة التفتيش البابوية ... وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنساني بالنار والعذاب .. وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرا بالملاحدة والكفار . فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مائة ساحة من ساحات الأسواق في أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها – وهم

---

[١] لا يعطَى هذا الأمر – وهو هزيمة النصارى النهائية في الحروب الصليبية – حقه من البحث فيما يكتبه المؤرخون حتى المسلمون منهم – لأننا في الغالب نرجع إلى المراجع الأوربية ، وهم يكرهون أن يذكروا الحقائق المتعلقة بهزيمتهم ، ومن بينها أن هذه الهزيمة قد هيأت نفوسهم لنقل الحضارة والعلوم الإسلامية والتأثر بها ، وأن هذا كان بدء " النهضة الأوربية " !

[٢] كان علماء المسلمين قد اهتدوا إلى هذه الحقائق منذ القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي – ولكن أوربا لم تتعرف عليها إلا بعد حركة الترجمة ابتداء من القرن الثاني عشر وما تلاه .

[٣] كلمة Free Thinkers لا تعني " المفكر الحر " بالمعنى الذي يتبادر إلى أذهاننا حين نقرأ هذه الكلمة ، ولكنها مرادفة للإلحاد .

في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم – تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة . وتحترق وتخمد معهم في نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية ، فتصبح رمادا تذروه الرياح " [١] .

* * *

لم يكن ذلك كل ما فعلته الكنيسة في تنفير الناس من ذلك الدين ..

فقد انقلب الدين على يد الكنيسة إلى عامل معوّق عن الحياة ، مضاد للعلم والحضارة والتقدم والرقي ، محقّر للإنسان ونزعاته الحيوية ، مهملٍ للحياة الدنيا بوهم العمل على خلاص الروح ، والتهيؤ لملكوت الله في الآخرة .

ينسب للمسيح عليه السلام أنه قال : " إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك منك عضو واحد من أن يلقى بدنك كله في النار "

وأنه قال : " من أراد الملكوت فليترك ماله وأهله وليتبعني " .

وأنه قال : " من أراد الملكوت فليحمل صليبه وليتبعني " [٢] .

وكلها دعوة للزهد في الحياة الدنيا والارتفاع عن الشهوات ..

وكلها لا يستبعد أن تصدر عن رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فضلا عن الرسول الذي أرسل إلى اليهود خاصة الذين كان حب الحياة الدنيا قد أعماهم عن الآخرة ، وحب المال وعبادة الذهب قد أديا بهم إلى الكفر بالله .

ومثل هذه الدعوة تجدها في آيات الكتاب المبين ، وفي أحاديث الرسول صلى الله عيه وسلم :

---

[١] ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ج ٣ ، ص ٩٠٨ – ٩٠٩ .

[٢] بمعنى فليوطن نفسه على ملاقاة الموت ، فقد كانت طريقة الرومان في تنفيذ أحكام الإعدام هي التعليق على الصليب .. وليس المعنى حمل صليب من ذهب أو فضة كما يفعل بعض النصارى !!

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [١] .

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [٢] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [٣] .

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) [٤] .

" ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه . بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه . " [٥] .

" إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .. " [٦] .

ولكن المسلمين لم يفهموا من ذلك أنها دعوة لإهمال الحياة الدنيا من أجل الفوز بالآخرة ، ولا دعوة لكبت نشاط الجسد الحيوي من أجل خلاص الروح .. ذلك أن تعليمات الكتاب والسنة منعت ذلك الفهم الجانح :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي **الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [٧] .

---

[١] سورة آل عمران [١٨٥] .

[٢] سورة التوبة [٢٤] .

[٣] سورة " المنافقون " [٩] .

[٤] سورة التغابن [١٥] .

[٥] أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

[٦] متفق عليه .

[٧] سورة الأعراف [٣٢] .

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ..) [١] .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..) [٢] .

" ألا إني لأعبدكم لله وأخشاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " [٣] .

" .. وإن في بضع أحدكم لأجرا . قالوا : يا رسول الله إن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له أجر ؟! قال : أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها في حلال فله عليها أجر " [٤] .

لذلك لم تنقلب الدعوة إلى الزهد في متاع الأرض إلى رهبانية منعزلة عن الحياة كالتي ابتدعها النصارى :

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [٥] .

إنما كانت توازنا جميلا رائعا بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، وبين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة .

كذلك لم يدر في خلد المسلمين قط أن الدين يدعوهم إلى قبول الظلم في الحياة الدنيا ، والرضى به طمعا في الفوز بالفردوس في الآخرة ، كما زعمت الكنيسة وهي تعبّد الشعوب الأوربية للإقطاع ، وتحضها على الاستكانة له وعدم التمرد عليه ، بدعوى أن " من خدم سيدين

---

(١) سورة القصص [٧٧] .

(٢) سورة هود [٦١] .

(٣) أخرجه الشيخان .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) سورة الحديد [٢٧] .

في الدنيا خير ممن خدم سيداً واحداً ! " .. ذلك أن الله حرم الاستكانة للظلم على من يقدرون على دفعه وأمر بالجهاد لإزالته :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً) [١] .

(وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً) [٢] .

* * *

ومهما يكن من أمر فقد تحول الدين النصراني على يد الكنيسة وآبائها ومفكريها إلى أغلال تفسد الحياة وتقعد بها عن النمو السويّ ، وتحولها إلى مستنقع آسن لا ينبض بالحياة ولا يسمح للحياة أن تنبض فيه .

دين يهمل الحياة الدنيا بدعوى تفاهتها وحقارتها وعدم جدارتها بالاهتمام ، وبدعوى أن الإنسان خاطئ بطبعه ، ولا سبيل إلى إصلاحه في الحياة الدنيا وكفه عن الخطيئة إلا بكفه عن ممارسة الحياة ذاتها – بالرهبانية – وتوجيه اهتمامه كله للآخرة ، والإيمان " بالمخلّص " ، لأن هذا وحده – لا العمل الصالح في الدنيا – هو سبيل الخلاص والجلوس عن يمين الرب في جنة الفردوس في اليوم الآخر .

---

[١] سورة النساء [٩٧ – ٩٩] .

[٢] سورة النساء [٧٥] .

دين يحتقر الجسد ويشمئز من نشاطه الفطري ، لأن هذا النشاط هو الذي يوقع الناس في الخطيئة ، وما دفع إلى الخطيئة فهو ذاته خطيئة ! وعلاجه الوحيد هو الكبت والقهر [١] .

دين يحقّر الإنسان ليمجد الرب .. كأنما لا يتحقق تمجيد الرب إلا بتحقير الإنسان ... وذلك بدعوى ان الإنسان إذا اتجه لتحقيق وجوده تمرد على الرب ، فلا بد من سحقه وإذلاله وتحقيره لكي يتمجد الرب في قلبه ، فيحصل على الخلاص ! [٢] .

دين يصرف الناس عن عمارة الأرض ، وعن ترقية الحياة وتنميتها ، بدعوى أن ذلك سيصرف الناس عن التوجه إلى الآخرة ، وسيحرك شهواتهم التي لا بد أن تكبت ، ومن ثم يوقعهم في الخطيئة الواقفة للإنسان بالمرصاد !

دين يحارب العلم ، بسبب جهل البابوات ورجال الدين ، وعدم اهتمام غالبيتهم بتثقيف أنفسهم ، واكتفائهم بسلطانهم الروحي على الجماهير ، وانكبابهم على " الكتاب المقدس " بكل ما فيه من تحريف ، على اعتبار أنه يحوي كل العلم المطلوب للإنسان في دنياه من أجل الخلاص في الآخرة !

دين لا يؤمن بالحركة النامية لأنه يؤمن بالثبات المطلق في كل شيء ، ويعتبر أي تغيير في الصورة خروجاً على الأصل الثابت الذي ينبغي أن تكون عليه الأشياء ، لأنها وجدت على هذه الصورة بإرادة الله ، فينبغي أن تبقى كذلك تمجيداً لإرادة الله ، وزجرا للإنسان – في تفاهته وحقارته – أن يتمرد على إرادة الله !

دين يحجر على العقل أن يفكر ، بدعوى أنه حين يفكر يزيغ ! ولا سبيل إلى منعه عن الزيغ إلا بمنعه عن التفكير ! ويكفي الأمة أن ينوب عنها الآباء (البابوات) في كل شيء . هم

---

[١] الكبت شيء والامتناع الإرادي شيء آخر (انظر إن شئت كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام ص ٧٣ – ٩١) فالكبت هو استقذار الدافع الغريزي في ذاته وعدم الاعتراف له بشرعية الوجود ، سواء مارسه الإنسان في الواقع أم لم يمارسه . أما الامتناع الإرادي فلا يلزم منه الاستقذار .

[٢] لاحظ حرص الرهبانية والصوفية كلتيهما على إذلال كيان الإنسان لتخليصه من الإحساس بذاته لكي يَخْلُصَ لله !

يفكرون لها ، وهم يفسرون لها ، وهم يعطونها الإجابة الصحيحة عن كل ما يخطر لها ، لا بعلم حقيقي ، ولكن بأنهم نواب بطرس وخلفاؤه ، وبطرس مفوض من الرب – أي عيسى ابن مريم عليه السلام في زعمهم ، ونستغفر الله من الشرك – وما يربطه في الأرض لا يحل في السماء ، وما يحله في الأرض لا يربط في السماء ! فهم بهذه الخلافة يتحدثون باسم الرب ، وكلامهم له صفة القداسة بذلك التفويض الإلهي ، وهم كذلك معصومون لأنهم خلفاء خليفة الرب .. فلا بد أن يكون قولهم هو الصواب !

دين لا يشعر الناس في ظله بالأمن .. فهم مهددون في داخل أنفسهم بالشعور الدائم بالخطيئة أو الخوف من الوقوع فيها ، ومهددون من خارج أنفسهم بسلطان الكنيسة الطاغي التي لا تكتفي – في محاسبتها للناس ورقابتها عليهم – بما يظهر منهم بالفعل ، بل بما يحتمل أن يظهر منهم في يوم من الأيام .. فتبدأ بسوء الظن ، وتثنيّ بالملاحقة المستمرة برغبة مسبقة أن تعثر على ما يدين الناس ويوقعهم تحت طائلة العقاب .. ويا له من عقاب ذلك الذي تقوم به محاكم التفتيش !

* * *

ليس العجب أن تنفر أوربا من ذلك الدين وتتمرد عليه ..

إنما كان العجب أنها صبرت عليه كل تلك القرون التي صارت – فيما بعد تمردها – تسميها " القرون الوسطى المظلمة " !

ولكن الواقع التاريخي يقول إنها لم تبدأ تمردها على ذلك الدين إلا بعد احتكاكها بالمسلمين ، وبصفة خاصة بعد هزيمتها في الحروب الصليبية ..

عندئذ بدأت أوربا تحس بمقدار الظلام الذي عاشت فيه كل تلك القرون ، وبدات تتوق للخلاص الحقيقي من أوهاق الكنيسة وطغيانها ، وبدأت تهفو إلى الإسلام بتأثير " الغزو الفكري الإسلامي " الوافد إلى أوربا من الشرق والغرب والجنوب ، مع حركة الترجمة بصفة خاصة ..

وهنا جن جنون الكنيسة – كما ألمحنا من قبل – وقامت تحارب التأثير الإسلامي بكل الوسائل ، وكان من بين تلك الوسائل تكليف الكنيسة لكتابها ومفكريها أن يشوهوا صورة الإسلام والمسلمين في عيون الأوربيين لينفروهم من الدخول في الإسلام ، وتوجيه أقبح الشتائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، ونفي الرسالة والوحي عنه ، وتصوير الإسلام بأنه دين شهواني فظ غليظ عدواني سفاك للدماء .. كما كان من بين تلك الوسائل أيضا محاكم التفتيش !

وحينئذ وقعت أوربا في المأزق الذي تعاني آثاره حتى اليوم ، حين نفرت من دينها المحرف ، ومن الحكومة " الثيوقراطية " – حكومة رجال الدين – وأوصد الباب أمامها في الوقت ذاته إلى الدين الصحيح ..

وكانت " العلمانية " ، بما تشتمل عليه من إبعادٍ للدين عن الهيمنة على واقع الحياة ، وعزله عن النفوذ السياسي بصفة خاصة ، وتقرير حق الإلحاد ، والمنافحة عنه ، وحق مهاجمة الدين ومفاهيمه لمن أراد ذلك .. كانت العلمانية – بهذه الصفات – هي سبيل الخلاص – في نظر أوربا – من ربقة ذلك الدين ، الذي يمثل في حسها الظلام والأغلال التي تسحق وجود الإنسان !

الدين الحق

إذا كانت تجربة أوربا مع دينها هي تلك التجربة البئيسة التي انتهت بها إلى العلمانية فإن دين الله ليس كذلك . لم يكن كذلك حين أنزل من عند الله ، ولم يكن كذلك في التطبيق العملي في الواقع التاريخي .

يقول تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ) [١] .

هو إسلام الوجه لله ، وعبادته وحده دون شريك ، واتخاذ أوامره وتعليماته منهجا للحياة .

وهذا الوصف لدين الله ليس خاصا برسالة معينة من الرسالات السماوية ، بل هو وصف لكل رسالة أنزلت من عند الله من لدن آدم ونوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أشد ما يكون انطباقا على الرسالة الخاتمة التي أنزلت على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، والتي تمت بها النعمة الربانية واكتمل الدين :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) [٢] .

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى **وَدِينِ الْحَقِّ** لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..) [٣] .

* * *

كل رسالة جاءت من عند الله كانت عقيدة وشعيرة وشريعة ومنهج حياة [٤] .

فأما العقيدة فلم تتغير على مدى الرسالات كلها ، وليس من شأنها أن تتغير . لا إله إلا الله . اعبدو الله ما لكم من إله غيره .

---

(١) سورة آل عمران [١٩] .

(٢) سورة المائدة [٣] .

(٣) سورة الصف [٩] .

(٤) انظر إن شئت كتاب " لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة " .

وأما الشعائر من صلاة وصيام وزكاة فلم تتغير في عمومها ، وإن اختلفت تفصيلاتها وهيئاتها من رسالة إلى رسالة عبر التاريخ .

وأما الشرائع فقد اختلفت اختلافا واسعا بحسب أحوال الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل واحتياجاتهم ، حتى جاءت الشريعة المكتملة مع الرسالة الأخيرة ، التي نزلت للبشرية كافة ، وللزمن المقبل كله من لدن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، واكتمل معها منهج الحياة الذي يريد الله سبحانه وتعالى أن تسير عليه البشرية إلى يوم القيامة .

ولحكمةٍ أرسل الله الرسل ، وأنزل معهم البينات :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ **لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**) [1] .

تلك هي حكمة إرسال الرسل إلى البشرية .. " ليقوم الناس بالقسط " . وأداة تحقيق القسط في واقع الناس هي الكتاب والميزان ؛ والرسول هو المبلغ والمبيّن والشارح والمعلم والقدوة الذي يعلم الناس كيف يقيمون حياتهم بالقسط :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [2] .

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [3] .

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يتركهم بلا هداية لكي لا يضلوا ، ويطغى بعضهم على بعض فيختل الميزان ويضيع القسط .

والخلل في حياة الناس يمكن أن يأتي من داخل النفس أو من خارجها .

---

[1] سورة الحديد [٢٥] .

[2] سورة النحل [٤٤] .

[3] سورة الأحزاب [٢١] .

فأما من داخل النفس فقد اقتضت مشيئة الله – وقد خلق الإنسان ليعبده ، وخلقه ليبتليه – أن يجعل مادة الابتلاء – بمعنى الاختبار – هي متاع الحياة الدنيا ، والشهوات المركبة في كيان الإنسان تجاه ذلك المتاع :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (١) .

(إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) (٢) .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (٣) .

والابتلاء الذي يتعرض له الإنسان بشأن متاع الحياة الدنيا هو الأسلوب الذي يتناول به ذلك المتاع ، والقدر الذي يتناوله منه ، والحدود التي يقف عندها أو يصل إليها . بعبارة أخرى هل يلتزم في تناوله لذلك المتاع بما أنزل الله ، فيلتزم بالحلال الذي أحله الله والذي يعلم أن الخير متحقق به ، ويمتنع عن الحرام الذي حرمه الله ، ويعلم سبحانه أن الشر متحقق فيه ، أم تجرفه شهواته فيتجاوز حدود الله ويقع في المحظور .. ؟

أما من خارج النفس فهناك غواية الشيطان الذي أخذ على عاتقه غواية بني آدم ليعصوا الله ويتجاوزوا حدوده :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (٤) .

---

(١) سورة الذاريات [٥٦] .

(٢) سورة الإنسان [٢] .

(٣) سورة آل عمران [١٤] .

(٤) سورة الأعراف [١٤ – ١٧] .

والأداة التي يستخدمها الشيطان في الغواية هي ذلك المتاع ، وما ركب في كيان الإنسان تجاهه من شهوات ، فينفخ فيها لتشتعل ، ليصعب على الإنسان الضبط فينجرف وراء الشهوات .

والابتلاء الذي يتعرض له الإنسان من قبل الشيطان هو ذات الابتلاء : هل يطيع الله ويلتزم بما أنزله من حلال وحرام ، وله على ذلك الجنة ، أم يطيع الشيطان الذي يؤزه لمعصية الله ، وجزاؤه على ذلك النار ؟!

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ [1] إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) [2] .

تلك قصة الإنسان على الأرض .. وذلك مصيره يوم يلقى الله ... ابتلاء في الحياة الدنيا ، وجزاء في الآخرة .

ولكن الله لم يترك بادئ ذي بدء الأداة التي تعينه على ضبط ما ركب في كيانه من شهوات :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ **وَالْأَفْئِدَةَ** لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [3] .

ثم أرسل له الرسل لإيقاظ تلك الأفئدة لكي لا تغفل عن مهمتها ، وجعلهم مبشرين ومنذرين ليقوموا بعملية التذكير :

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [4] .

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) [1] .

---

[1] العبادة هنا معناها الطاعة والاتباع .

[2] سورة يس [٦٠ – ٦١] .

[3] سورة النحل [٧٨] .

[4] سورة النساء [١٦٥] .

وبذلك تتلاقى الجوانب كلها ، ويرتبط بعضها ببعض ارتباطا محكما ، ويختار الإنسان طريقه على بينة من أمره ، ويتحمل مسئولية اختياره :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [٢] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) [٣] .

وتتضح في ذلك الإطار مهمة الرسل في حياة البشرية ، ومهمة الدين في حياة الإنسان ..

* * *

لا غنى للإنسان عن الدين ..

فإذا كان الإنسان قد خلق لعبادة الله ، فالدين هو الذي يبين له الطريق الصحيح لعبادة الله ، وإذا كان قد خلق في الوقت ذاته للابتلاء فالدين هو الذي يبين له الطريق الصحيح للنجاح في الابتلاء .

ثم إن الإنسان عابد بفطرته ، سواء استقامت فطرته على الأصل الذي فطرها الله عليه أم انحرفت لسبب من الأسباب :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) [٤] .

" إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين .. " [٥] .

---

[١] سورة الذاريات [٥٥] .

[٢] سورة الشمس [٧ - ١٠] .

[٣] سورة الزلزلة [٧ – ٨] .

[٤] سورة الأعراف [١٧٢] .

[٥] أخرجه مسلم .

ومن ثم فليس له في العبادة إلا إحدى حالتين : إما أن يكون عابدا لله ، وإما أن يكون عابداً لغير الله ، وحين يكون عابداً لغير الله فإنه يكون عابداً للشيطان ، ذلك أنه لا توجد إلا هاتان العبادتان فحسب ، وإن كانت لعبادة الشيطان سبل مختلفة وأسماء مختلفة ، ورايات مختلفة ، ولعبادة الله صراط واحد مستقيم :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [١] .

وحين يعبد الإنسان الله يكون " في أحسن تقويم " وحين يعبد الشيطان يكون في " أسفل سافلين " ، ومهمة الدين في حياة الإنسان أن يرفعه دائما ليكون في أحسن تقويم ، ويمنعه أن يسقط أسفل سافلين ..

* * *

إذا عرفنا مهمة الدين في حياة الإنسان فلزم أن نعرف في الوقت ذاته ما هو " الدين "!

وقد يبدو السؤال من البداهة بحيث لا يحتاج أن نسأله ولا يحتاج أن نجيب عليه !

ومع ذلك فتحديد معنى الدين قد أصبح – بسبب العلمانية المنتشرة في الأرض ولأسباب أخرى – قضية ذات أبعاد خطيرة .. قضية تعقد من أجلها الندوات ، وتؤلف الكتب ، وتلقى المحاضرات .. ويدخل قوم من أجلها السجون ، وتعلق المشانق ويستشهد الشهداء !

لا جرم أنها القضية الكبرى في الوجود ...

من أسباب الغبش الذي يغشّي قضية الدين تلك الغربة التي يعيش فيها الإسلام اليوم :

" بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء " [٢] .

ومن أسبابها ثقل " الأمر الواقع " على حس الناس ، وهو أمر واقع بعيد عن الصورة الحقيقية للإسلام .

---

[١] سورة الأنعام [١٥٣] .

[٢] أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي .

ومن أسبابها بروز المعنى الذي فهمته أوربا من الدين – بسبب غلبة أوربا اليوم على الأرض – ومفاده أن الدين علاقة بين العبد والرب ، محله القلب ولا شأن له بواقع الحياة ! على أساس أن الدين لله والآخرة ، والواقع " لقيصر " يصرّفه كيف يشاء !

فإذا أضيفت إلى ذلك الفكرُ العلمانيُ [١] الذي يسود الأرض اليوم ، والذي يفصل الدين عن السياسة ، ويعزله عن الهيمنة على أمور الناس " الحياتية " فقد وصل الغبش إلى قمته ، وأصبح الأمر في حاجة إلى البيان الشديد !

* * *

مرجعنا في أمور الحياة كلها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم :

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) [٢].

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) [٣] .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) [٤] .

فإذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكلمة الإسلام العظمى هي شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ومعناها عبادة الله وحده دون شريك ، والالتزام بما جاء من عند الله عن طريق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

فما مقتضيات هذه الكلمة العظيمة التي يدخل الإنسان بها في الإسلام ؟

---

[١] يلاحظ أن " العلمانية " بمعنى فصل الدين عن الدولة ، قديمة في الفكر الكنسي الذي قال : " أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله " ! ولكن الكنيسة في أيام سطوتها فرضت سلطانها على قيصر لا لتلزمه بالحكم بما أنزل الله ، بل لتلزمه بأهوائها . أي إنها فرضت سلطانها هي ولم تفرض سلطان الشريعة . وهذا الذي جاءت العلمانية الحديثة لتقضي عليه ، وهو على وجه التحديد : فصل الدولة عن نفوذ رجال الدين !

[٢] سورة الشورى [١٠] .

[٣] سورة الحشر [٧] .

[٤] سورة النساء [٦٤] .

إن لها مقتضيات شتى نستخلصها كلها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وربما كأن أيسر طريق إلى ذلك أن نعرف بأي شيء كان المشركون مشركين ، لنعلم – في المقابل – كيف يصبح المسلمون مسلمين ، تحقيقا لقوله تعالى (**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ** وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا) [١] .

نجد في كتاب الله هذه الأحوال والصفات للمشركين :

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ **وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**) [٢] .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ **إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) [٣] .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ **مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ** نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا **حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ**) [٤] .

ثم جاء وصفهم في آيات أخرى بأنهم " يبخلون بما آتاهم الله من فضله " و " ينفقون أموالهم رئاء الناس " وأنهم هلوعون جزعون ، وأنهم مطففون ، وأنهم " ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض " وأنهم يقتلون النفس التي حرم الله ، ويزنون ، وينحرفون في تعاملهم مع الناس انحرافات شتى ..

---

[١] سورة البقرة [٢٥٦] .

[٢] سورة ص [١ – ٥] .

[٣] سورة سبأ [٧ – ٨] .

[٤] سورة النحل [٣٥] .

وخلاصة ذلك أنهم يرفضون الإقرار بوحدانية الله ، وينكرون البعث ، ويكذبون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي كلها أمور تتعلق بالاعتقاد .

وأنهم يعبدون مع الله آلهة أخرى يتقدمون لها بألوان من العبادة لا تحق لغير الله سبحانه وتعالى .

وأنهم يحرمون ويحلون من دون الله ، أي يشرعون بغير ما أنزل الله .

وتلك الثلاثة : شرك الاعتقاد ، وشرك العبادة ، وشرك الاتباع (أو شرك التشريع) هي الجذور الأساسية الكبرى للشرك ..

ثم هناك أخلاقيات وأعمال أخرى نابعة كلها من أحد تلك الأنواع الثلاثة أو منها جميعا ، ويمكن أن نطلق عليها " متعلقات الشرك " ..

ومقتضى ذلك – في المقابل – أن يكون مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هو البراءة من ألوان الشرك جميعا ومن متعلقاته .

أي إنه – بعبارة أخرى – الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتفرده – سبحانه – في أسمائه وصفاته وأفعاله . وتوجيه كل ألوان العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج ونذر وذبح واستغاثة واستعانة وولاء وبراء إليه وحده دون شريك . والالتزام بشرعه وحده وعدم التشريع بما يخالف شريعته .. ثم الالتزام بأخلاقيات لا إله إلا الله ، والالتزام بالمنهج الرباني في كل أمور الحياة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. إلخ [١] .

ومع أن هذا كله هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإنه ليس على درجة واحدة من الإلزام ، وليست مخالفته والخروج عليه بمنزلة واحدة في ميزان الله .

---

[١] راجع إن شئت فصل " مقتضيات لا إله إلا الله في الرسالة المحمدية " من كتاب " لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة " .

ففي مقابل الجذور الرئيسية الثلاثة للشرك ، توجد جذور رئيسية ثلاثة للإيمان لا يتحقق الإيمان أصلا إلا بوجودها ، وهي ما يتعلق بالاعتقاد ، والعبادة ، والتشريع .

١ – " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره " كما جاء في حديث : " هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم " [١] .

٢ – أن تلتزم بالعبادات المفروضة وتجعلها خالصة لله وحده دون شريك .

٣ – أن تحتكم في أمورك كلها إلى ما أنزل الله ، ولا تحدث تشريعا يخالف شريعة الله .

وفي مقابل " متعلقات الشرك " توجد " متعلقات للإيمان " لا يخرج مخالفها من دائرة الإيمان وإنما ينقص إيمانه بمقدار ما يعصي الله فيها ويزيد إيمانه بقدر ما يأتي من الطاعات فيها ، ولكنه في الحالين غير خارج عن دائرة الإيمان .

* * *

ذلك هو الدين الحق ، كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد غشّت غواشٍ كثيرة على هذا الفهم الواضح للدين خلال القرون ، من الفكر الإرجائي ، والفكر الصوفي ، والبدع والمعاصي والانحرافات والغزو الفكري فشوهت كثيرا من مفاهيم الدين الاعتقادية والتعبدية والعملية .. [٢] .

ثم جاءت " العلمانية " – وهي لون من ألوان الغزو الفكري – فركزت على مطلب معين لم يطلبه أحد من العصاة المنحرفين من قبل ، وهو فصل الدين عن الدولة وإخراج السياسة من الدين ، والمطالبة بعدم تحكيم شريعة الله ! !

وهذا الأمر هو الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب ..

* * *

---

[١] أخرجه الشيخان .

[٢] راجع إن شئت كتاب " مفاهيم ينبغي أن تصحح " .

نقول ابتداء إنه لون من ألوان الغزو الفكري ، لأنه فكر غربي لم ينبت قط في أرض الإسلام ، على كثرة ما نبت فيها من انحرافات خلال القرون ! إنما جاء من تأثير الثقافة الغربية ، وغلبة أوربا على العالم كله ، وعلى العالم الإسلامي في عصر ضعفه وانحساره وتخاذله .

ولا شك أن الهزيمة الروحية التي أصابت المسلمين بعد الهزيمة العسكرية أمام الغرب ، والتي نشأت من الخواء الذي أصاب العقيدة في قلوب المسلمين في العهود الأخيرة [١] ، لا شك أن تلك الهزيمة الروحية هي التي يسرت في نفوس المنهزمين تقبل هذا الفكر الغريب الذي لا أصل له في دين الله ، ولا يمكن أن يُتَقَبّلَ في دين الله .. وإلا فقد كان المسلمون – في أيام قوتهم وتمكنهم في الأرض – معتزين بدينهم ، لا يقبلون تغييراً في أصوله ، حتى لو عَصَوْا بعض أوامره وتعاليمه في واقع حياتهم ، فالمعصية مع الإقرار شيء ، وإنكار الأمر من الأساس شيء آخر ..

ونريد هنا على أي حال أن نناقش الأمر مناقشة موضوعية ، كما وعدنا في مقدمة الكتاب ، بصرف النظر عن دوافع العلمانيين أو مواقفهم ، فتلك أمور تتعلق بأشخاصهم ، ونحن هنا نناقش أفكارهم .

* * *

كانت " العلمانية " كما رأينا في الفصل السابق رد فعل لطغيان الكنيسة ، وأثرا من آثار التحريف الذي وقع في دين بولس الذي أخذته أوربا على أنه دين الله ..

ولنُعِد في اختصار أبرز سمات ذلك الدين ، التي كانت العلمانية في نظر أوربا هي المخرج الوحيد منها :

دين أخروي يهمل الحياة الدنيا وعمارتها .

دين يحقّر الإنسان بدعوى تمجيد الله .

---

[١] اقرأ إن شئت فصل " خط الانحراف " وفصل " آثار الانحراف " من كتاب " واقعنا المعاصر " .

دين يحقّر الجسد بدعوى تخليص الروح .

دين يحارب العلم .

دين يحجر على العقل أن يفكر .

دين يؤمن بالثبات المطلق – على أنه مشيئة الله في الأرض – فيحارب الحركة والنمو وما يصحبهما من تغيير .

وفوق ذلك كله طغيان الكنيسة الروحي والمالي والسياسي والعلمي والفكري .. وفي كل اتجاه .

ثم لننظر في دين الله ، ولنبحث فيه عن سمة من تلك السمات التي ألجأت أوربا إلى العلمانية لتتخلص منها .

فأما إنه دين أخروي يهمل الحياة الدنيا وعمارتها فالواقع التاريخي خير شاهد على عكس ذلك . فما تم من عمارةٍ للأرض ، وعمل دءوب فيها ، أوضح من أن يشار إليه ، بأي مقياس قسنا تلك العمارة وذلك العمل الدءوب .

فإذا كان مقياس العمارة هو بناء المدن ومد الطرق وتشييد المباني وتيسير الخدمات فما أروع ما قام به المسلمون في هذا الجانب ..

وإذا كان مقياسها " المؤسسات " والتنظيمات وحسن الإدارة والسهر عليها فالمدارس التي تقدم التعليم المجاني ، والمستشفيات التي تقدم العلاج المجاني ، والأوقاف الموقوفة على أعمال البر ، ودواوين الجيش ، ودواوين القضاء ، ودواوين المظالم ، ودواوين الحسبة ، وبيت المال وغيرها من المؤسسات والتنظيمات تغنينا عن الحديث .

وإذا كان مقياسها القيم الروحية والأخلاقية ، فهنا تنفرد العمارة الإسلامية للأرض بأنها هي التي قدمت حضارة لا تكتفي بالعمارة المادية للأرض ، إنما ربطت نشاطها المادي بالقيم الروحية ، فعملت للدنيا والآخرة في آن واحد ، وأرضت مطالب الجسد ومطالب الروح في آن واحد ،

وكونت مجتمعاً امّحت فيه فوارق اللون واللغة والجنس ، واجتمع على العقيدة الواحدة التي تربط الجميع برباط الأخوّة في الدين .. مجتمعاً فريداً في التاريخ .

وإذا كان مقياسها إحساس لإنسان بذاته ، واعتزازه بعمله ونشاطه ، وبأنه فرد في أمة ذات رسالة تؤديها لنفسها وللبشرية ، وانسياح الإنسان في الأرض وبحثه في مجاهلها ، وحمله نور الهداية إلى أطرافها .. فقد قامت الأمة الإسلامية بذلك أروع قيام .. وكان نشاطها كله منبثقا من إيمانها بهذا الدين ، وممارستها له في عالم الواقع في شكل سلوك ووجدانات ومشاعر .

وإذا كان مقياسها التقدم العلمي فحدث عن ذلك ولا حرج .. وتكفي حضارة الأندلس شاهدا ، ويكفي المنهج التجريبي في البحث العلمي شاهداً ، وتكفي علوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله .. وكلها جهود ذاتية غير مسبوقة ، تفردت بها الأمة الإسلامية ، وأنتجت فيها في قرون معدودة ما يغطي حقباً من التاريخ !

* * *

وأما تحقير الإنسان بدعوى تمجيد الله .. فما من دين عظّم الله ومجده على استقامة في المشاعر وفي السلوك وفي التصور وفي الأداء كما فعل الإسلام ، إذا قارناه بتصورات اليهودية المحرفة التي تصور الله سبحانه وتعالى كأنما هو بشر ذو نزوات ، وكأنما هو – في بعض الأحيان – أعجز من البشر :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [١] .

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) [٢] .

---

[١] سورة المائدة [٦٤] .

[٢] سورة آل عمران [١٨١] .

وذلك فضلا عن ترهات التوراة فيما يتعلق بمقام الله ، مما تتقزز النفس من مجرد تصوره ..

وإذا قارناه كذلك بتصورات النصرانية المحرفة التي زعمت لله ولدا ، وأشركته معه في الألوهية ، بل أشركت كذلك روح القدس (جبريل عليه السلام) معهما ليصير المجموع ثلاثة ، والثلاثة واحد .. آمين ! !

ومع كل التعظيم الحق لله ، والتمجيد لذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فقد كرّم الله الإنسان ، ولم يعتبره خاطئا " خطيئة أزلية " تتحملها كل أجيال البشرية على السواء ! !

قال تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [١] .

كرمه تعالى بأن سواه بنفسه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة :

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [٢] .

وكرمه بأن جعله خليفة في الأرض :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [٣] .

وكرمه بأن علمه الأسماء كلها ، وميزه بهذا التعلم على الملائكة :

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ..) [٤] .

---

[١] سورة الإسراء [٧٠] .

[٢] سورة ص [٧١ – ٧٢] .

[٣] سورة البقرة [٣٠] .

[٤] سورة البقرة [٣١ – ٣٣] .

وكرمه بأن أعطاه القدرة على التعلم بالقلم :

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [١] .

وكرمه بأن وهب له العقل المفكر ، ووكل لهذا العقل تدبر الوحي ، وفهم مراميه وتطبيقه في واقع الحياة ، والاجتهاد فيما لم ينزل فيه نص – رحمة من الله غير نسيان :

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [٢] .

وكرمه بأن خلقه في أحسن صورة ، ورزقه من الطيبات :

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ..) [٣] .

وكرمه بأن لم يقهره على العبادة كغيره من المخلوقات ، بل منحه حرية الاختيار :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [٤] .

ولم يجعل عليه " خطيئة أزلية " يتجرع مرارتها على مر الأجيال ، بل تاب على صاحب الخطيئة الأصلي وعفا عنه :

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [٥] .

فإذا أخطأ أحد فعليه وحده وزر خطيئته لا يحمله غيره :

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [٦] .

وإذا تاب من خطيئته فله كل التكريم :

---

[١] سورة العلق [٣– ٥] .
[٢] سورة النحل [٧٨] .
[٣] سورة غافر [٦٤] .
[٤] سورة الشمس [٧ – ١٠] .
[٥] سورة البقرة [٣٧] .
[٦] سورة الإسراء [١٥] .

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [1] .

* * *

أما تحقير الجسد لتخليص الروح فقد أشرنا في الفصل السابق إشارة عابرة إلى الفارق في هذا الشأن بين الإسلام وبين رهبانية النصرانية .. ونضيف هنا إلى تلك الإشارة أن الإسلام ينظر إلى دوافع الجسد على أنها في ذاتها نظيفة ، وأن الله خلقها لتعمل وتؤدي مهمتها التي خلقت من أجلها لا لتقتل ولا لتكبت . وإنما المستقذر هو الفاحشة .. أي تجاوز الحد الذي رسمه الله لكل دافع من تلك الدوافع . أما في داخل تلك الحدود فهي ليست مباحة فقط ، بل مطلوبة ومرغوبة . والذي تقوم به التربية الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة ليس هو الكبت ، إنما هو الضبط ، وهو عملية صحية وإيجابية ، تقوي الإرادة ، وتحفظ الطاقة من التبدد ، ثم تستخدم فائض الطاقة – الذي يتوفر بعد عملية الضبط – في عمل هو في ميزان الإسلام أسمى الأعمال وأعظمها ، وهو الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ورد العدوان عن الإسلام والمسلمين .

وبذلك يأخذ الجسد مجاله الفطري الطبيعي ، دون أن يهبط الإنسان إلى المستوى الحيواني في ممارسة المتاع الحسي ، وفي الوقت ذاته يجند الإنسان نفسه للقيم العليا ، التي تتوارى حتماً حين يغرق الإنسان في المتاع الحسي ، أو تُقْتَل حتما حينما يَقْتُلُ الإنسان دوافعه الفطرية بدعوى تخليص الروح من ربقة الجسد !

* * *

وأشرنا فيما سبق من هذا الفصل إشارة عابرة كذلك إلى موقف الإسلام من العلم .. ونضيف هنا أن الإسلام هو الذي دفع المسلمين إلى طلب العلم ، والتعمق فيه ، والبحث الجاد في مجالاته المختلفة .. وأن روح البحث العلمي سواء النظري أو التجريبي ، لم تكن طبيعة في

---

[1] سورة آل عمران [١٣٥ – ١٣٦] .

هذه الأمة قبل إسلامها . إنما اكتسبتها الأمة من الإسلام حينما آمنت به ومارسته في عالم الواقع . فقد بدأ الوحي – أول ما بدأ – بالتوجيه إلى القراءة :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [١] .

وتوالت الآيات تطلب من المسلمين التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وتخبرهم أن الله سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ، وأن عليه أن يبذل جهده في التعلم لتحقيق ذلك التسخير في عالم الواقع . وأن القوة مطلب من مطالب هذه الأمة من أجل المحافظة على عقيدتها وكيانها ، ومن أجل منع الفتنة عن المسلمين ، والقوة لا تتأتى بغير العلم .. وقد أثمرت هذه التوجيهات الربانية ظهور المنهج التجريبي في البحث العلمي على يد المسلمين حين كانوا مسلمين حقا ، وبالمنهج التجريبي تقدمت العلوم تقدما هائلا ، ووضعت اللبنات التي يقوم عليها صرح التقدم العلمي في الوقت الحاضر .

وأهم من ذلك كله أن التقدم العلمي عند المسلمين سار على وفاق كامل مع العقيدة ، ولم يقع بينه وبينها ذلك الفصام النكد الذي وقع في أوربا مرتين ، مرة في ظل الدين الكنسي المحرف ، ومرة في ظل العلمانية المنحرفة ، وفي المرتين شَقِيَ الإنسان بذلك الصراع المفتعل بين الدين والعلم ؛ بين نزعتين فطريتين في داخل النفس ، لا تصادم بينهما في أصل الفطرة ولا تضاد !

* * *

أما الحجر على العقل فلم يقع قط في ظل هذا الدين كما وقع في دين الكنيسة المحرف . بل كان الدين هو الذي دعا إلى إعمال الفكر من أول الأمر : (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ **تَتَفَكَّرُوا** مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) [٢] .

---

[١] سورة العلق [١ – ٥] .

[٢] سورة سبأ [٤٦] .

بل ندد بالذين لا يتفكرون ، وامتدح الذين يقومون بالتفكر :

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (١) .

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً) (٢) .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ **وَيَتَفَكَّرُونَ** فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (٣) .

ولم تكن دعوة القرآن للناس مجرد دعوة إلى التفكر بلا هدف محدد ولا ضابط ، إنما هي دعوة للبحث عن الحقيقة ، والاهتداء في أثناء البحث بالدليل ، والتجرد من الهوى الذي يفسد الحكم ، والشعور بالمسئولية عن كل حكم يصدره الإنسان .. وتلك – في عبارة مختصرة – هي أدوات المنهج العلمي في البحث ، التي قامت عليها النهضة الفكرية الهائلة التي قدمها المسلمون للبشرية ، والتي بدأت أوربا نهضتها بالاقتباس منها والبناء عليها :

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (٤) .

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) (٥) .

(وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (٦) .

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ..) (٧) .

---

(١) سورة محمد [٢٤] .

(٢) سورة الفرقان [٧٣] .

(٣) سورة آل عمران [١٩٠ – ١٩١] .

(٤) سورة النمل [٦٤] .

(٥) سورة الأنعام [١٤٨] .

(٦) سورة الإسراء [٣٦] .

(٧) سورة النجم [٢٣] .

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) [١] .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) [٢] .

وفي ظل هذه التوجيهات أعمل المسلمون فكرهم في كل مجالات البحث ، لا يشعرون بالتناقض بين مقتضيات دينهم ومقتضيات فكرهم – إلا من شذ منهم بتأثير الغزو الفكري اليوناني أو شطحات الصوفية ، وهم قلة على أي حال في خضم الإنتاج الفكري الهائل الذي أنتجه المسلمون – ولم يكن هناك هيئة من " الإكليروس " تراقب أعمالهم لتقدمهم إلى محاكم التفتيش ، إنما كانت هناك ضمائرهم تحاسبهم لكي يقولوا الحق ولا يحيدوا عنه ، وكان " الحق " الذي يمثله دينهم يملأ قلوبهم فيزيدهم قربا من الله كلما اكتشفوا جديداً من العلم ، فكانوا كما قال الله عنهم :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [٣] .

* * *

أما قضية الثبات والتغير ، فالمسلمون هم أساتذة هذا الفن .. فن الاجتهاد في إطار النص ، والاجتهاد – فيما لا نص فيه – في إطار مقاصد الشريعة ..

إن هذا هو " الفقه الإسلامي " الذي أعطى منذ القرون الأولى تلك الثروة الهائلة التي ما تزال تنير الطريق للسالكين ، والتي تمثل ذخيرة صالحة للاستمداد منها ما بقيت هذه الأمة في الأرض ، بما وضعت – في علم أصول الفقه – من قواعد لمواجهة كل جديد يجد في حياة الناس ..

لقد أدرك المسلمون منذ اللحظة الأولى التي انقطع فيها الوحي بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه لا بد من الاجتهاد لمواجهة الظروف الجديدة التي لم يتنزل فيها بذاتها نص في

---

[١] سورة " المؤمنون " [٧١] .

[٢] سورة يونس [٣٢] .

[٣] سورة فاطر [٢٨] .

الكتاب أو السنة . فلم يضيقوا بالجديد ، ولم يقفوا أمامه حائرين ، وفي الوقت ذاته لم يتبعوا أهواءهم بغير ضابط ، بحثا عما يرون هم – بمجرد الهوى – أنه هو " المصلحة " التي يتحقق بها الخير . ذلك أنهم آمنوا ابتداء أن دين الله المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هو الحق . وهو القسط . وهو " المصلحة " في الدنيا والآخرة وأن فيه وحده الهدى ، إما بنص مباشر أو بقاعدة يستنبطون منها ، وأن مخالفة نصوصه أو مخالفة قواعده لا تأتي بخير ولا تتحقق منها مصلحة ، مهما بدا للإنسان بنظره – أي بمجرد هواه – أن الأمر غير ذلك .. وأنه لا يحدث في الأرض شيء لا يكون له حكم في كتاب الله .. [١] .

وآمنوا في الوقت ذاته أن الحياة لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة دون أن تجدّ فيها أحداث . وأنهم لا يستطيعون – ولا يستطيع بشر – أن يوقفوا الحياة عند نقطة معينة أو يضبطوها في قالب معين لا تخرج عنه .. ولكن لا ينبغي للتغير في الوقت ذاته أن يخرج الناس عن الصراط الذي رسمه الله لهم في وحيه المنزل .. إنما تتغير الحياة ، وتظل في تغيرها محكومة بثوابت الوحي ، لكي لا تأسن من ناحية ، ولا تضل من ناحية أخرى وتتفلت بلا ضابط .

وهكذا كانت قضية الثابت والمتغير واضحة تماما في أذهانهم ، وكانت هي الدافع الذي دفع الفقهاء إلى الاجتهاد ، وإلى الإيمان بأن الاجتهاد لا يتوقف ما بقيت الحياة .

* * *

إذا كان هذا دين الله الحق ، في أصوله المنزلة من عند الله ، المحفوظة بحفظ الله لها ، كما هو في التطبيق الواقعي الذي استمر عدة قرون ، وأضاء للدنيا كلها مسالك الطريق ، قبل أن يتقاعس المسلمون عنه في الفترة الأخيرة ، فينحسروا ويتقهقروا ويتخلفوا ويضعفوا .. فأي شيء في هذا الدين يدعونا إلى نبذه وعزله عن الحياة ، واستبدال غيره به ليخرجنا منه ؟ !

---

[١] يقول الشافعي رحمه الله : " فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها " الرسالة للشافعي تحقيق الشيخ أحمد شاكر ص ٢٠ .

إنما يكون علاج ما نحن فيه من انحسار وتقهقر وتخلف وضعف ، أن نعود إلى منبع القوة الذي تقاعسنا عنه ، وإلى نقطة الانطلاق التي منحتنا من قبل الحياة والتقدم والازدهار .. وهو ما تحاوله الصحوة الإسلامية اليوم ، ونرجو أن تنجح فيه ..

حقاً هناك نقطة واحدة هي التي يتمسك بها العلمانيون في جدالهم كله ، ويركزون عليها ليدّعوا وجاهة دعواهم في فصل الدين عن الدولة ، وهي وجود الاستبداد السياسي على فترات متطاولة من تاريخ المسلمين .

ووجود الاستبداد السياسي على فترات من تاريخ المسلمين حقيقة واقعة دون شك .. ويجب أن نكون صرحاء مع أنفسنا ، وتكون لدينا الشجاعة الكافية ، والولاء الكافي للحق الرباني لنقرّ بوجود هذه السلبية في الواقع التاريخي للمسلمين . فهذه أمانة تؤدى لله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ..) [١] .

حقيقة إن التاريخ السياسي للمسلمين ليس ظلاماً كله كما يدعي أعداء هذا الدين لينفّروا أهله منه ، وليخذّلوا الصحوة الإسلامية عن محاولة العودة إليه .. وإن في هذا التاريخ – فيما بعد فترة الخلافة الراشدة المجمع على مثاليتها ، وارتفاعها على كل ما عرفته البشرية من النماذج في القديم والحديث – نماذج كثيرة من العدل السياسي ، وأخلاق الحكم الرفيعة ، وشعور المحكومين بالرضى والطمأنينة ، والتمتع بالأمن والاستقرار ..

ولكن وجود الاستبداد السياسي يبقى مع ذلك حقيقة واقعة ، وحقيقة بارزة في التاريخ السياسي للمسلمين .

ولكن الضجة التي يثيرها العلمانيون حول هذه النقطة تحمل عدة مغالطات تحتاج إلى بيان ، لتوضيح الحقيقة فيها ، وإزالة الغبش الكثيف الذي يثار حولها ..

---

[١] سورة النساء [١٣٥] .

إنها – كما قال عليّ رضي الله عنه – كلمة حق أريد بها باطل !

وأول هذه المغالطات وأبرزها أن الاستبداد السياسي نتيجة حتمية للحكم " الديني " وأن ما حدث في تاريخ المسلمين هو نفسه ما حدث في تاريخ " الحكومة الثيوقراطية " في أوربا ، ولذات السبب الذي أحدثه هناك ، وهو استناد الحكام إلى قداسة الدين وممارسة الاستبداد باسم شيء مقدس له على نفوس الناس سلطان ، واعتبار المعارضين لأولئك الحكام خارجين على الدين ذاته مما يسوغ اضطهادهم وقهرهم والفتك بهم دون أن يحميهم من الطغيان حامٍ !

وهذه المغالطة الكبرى تشتمل هي ذاتها على عدة مغالطات ..

فليس في الإسلام أصلا حكومة " ثيوقراطية " ولا يمكن أن يكون فيه ، لأنه ليس في الإسلام ابتداء هيئة تسمى " رجال الدين " !

وقد مرّ بنا في الفصل الأول أن " الكنيسة " كانت بدعة مبتدعة لم يتنزل بها من عند الله سلطان ، ولا سند لها إلا هذه القولة المنسوبة للمسيح عليه السلام ، والتي لا يمكن أن تصدر عنه في الحقيقة ، وهو رسول مرسل من عند الله ! ومن ثم فدين الله الحق بريء من تلك البدعة التي أفسدت حياة أوربا وأذاقتها الويلات ..

و " الحكومة الثيوقراطية " كما عرفتها أوربا لم تكن حكومة تحكم بما أنزل الله – وليتها كانت ! – إنما كانت – كما يعرف مؤرخو أوربا – حكومة " رجال الدين " ، تحكم لا بالدين ، ولكن باسم الدين ! وتفرض سلطانها على الأباطرة والشعب باسم ذلك الدين ! أما الشريعة التي كانت تحكم الناس في ظل الحكومة الثيوقراطية فقد كانت هي القانون الروماني ، ولم يكن لها علاقة البتة بالشريعة المنزلة عليهم من عند الله والتي كان المفروض أن يلتزموا بها ، وهي الواردة في التوراة مع التعديلات الواردة عليها في الإنجيل :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ

بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [١] .

(وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [٢] .

إنما بقيت الشريعة المنزلة طوال حكم " الحكومة الثيوقراطية " قيماً أخلاقية يتقيد بها الأتقياء ورعاً من عند أنفسهم فلا يزنون ولا يسرقون ولا يقتلون ولا يغشون ولا يرابون .. إلخ ، ولكنها ليست شريعة مطبقة يعاقب من خرج عليها بمقتضى النصوص الواردة فيها ، إنما كان القانون الروماني – قانون قيصر – هو الذي يحدد الجريمة ويحدد العقاب ! وأما سلطان " رجال الدين " على الأباطرة فلم يكن لإلزامهم بتنفيذ الشريعة المنزلة – وليته كان ! – ولا كان سلطانهم على " الشعب " لإجراء أحكام الشريعة عليهم .. إنما كان لإخضاع هؤلاء وهؤلاء لسطوتهم الذاتية ، التي عن طريقها يكتنزون بالمال السحت الذي ينهبونه من الأباطرة ومن الشعب ، ويعفون أنفسهم من الضرائب التي يلتزم بها الآخرون ، ويسخّرون الناس لخدمتهم بغير أجر ، ثم يزدادون طغيانا فيحجرون على أفكار الناس وعقولهم ، ويخنقون أرواحهم باسم الدين !

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ..) [٣] .

فأين هذا من التزام الحكام في الإسلام بتطبيق شريعة الله ؟ ! !

---

[١] سورة المائدة [٤٤ – ٤٧] .

[٢] سورة آل عمران [٥٠] .

[٣] سورة التوبة [٣٤] .

إن حكومة أبي بكر رضي الله عنه ومن بعده لم تكن حكومة " ثيوقراطية " .. إنما كانت حكومة تحكم الناس بما أنزل الله ، وتطبق شريعته ، سواء منها ما نزل فيه نص أو ما اجتهد فيه المجتهدون في إطار النصوص .

أم إنه كما يقول المثل الشعبي " كله عند العرب صابون " ؟ ! ! [١] .

إن الغلطة من الأصل هي محاولة وضع الإسلام وتطبيقاته على ميزان التجربة الأوربية ، واستخدام المصطلحات الغربية ذات الدلالات المحلية البحتة ، كأنها اصطلاحات " إنسانية " أو عالمية ، تصلح للتطبيق على أي شيء وفي أي مكان ، دون نظر إلى الفروق الجوهرية بين التجربة التي تمت في ظل الدين المزيف ، والتجربة التي تمت في ظل الدين الحق ، وبين الاصطلاحات التي صنعها البشر في ظروف معينة والمصطلحات التي أنزلها الله لتحكم الحياة ، أو اجتهد المجتهدون بها وهم ملتزمون بما أنزل الله .

* * *

والمغالطة الثانية أن " رجال الدين " الذين أقاموا " الحكومة الثيوقراطية " في ظل النصرانية المحرفة كانوا " طبقة مقدسة " تستمد قداستها الزائفة من ذلك النص الذي نسبوه للمسيح عليه السلام وهو منه براء ، والذي زعموا فيه أن المسيح أعطى حق الحل والربط لحواريّه بطرس ، وهذا أعطاه بدوره لآباء الكنيسة من بعده ، وأن ما ربطه بطرس – وخلفاؤه من بعده – في الأرض لا يحل في السماء ، وما حله في ألأرض لا يربط في السماء . أي إنهم زعموا أن الأرض تحكم السماء ، والبشر يحكمون قدر الله ومشيئته .. وهو كفر بواح . بينما أبو بكر رضي الله عنه ومن خَلَفَهُ من الحكام لم يكونوا طبقة معينة ، ولم يكن لهم حق التشريع من عند أنفسهم ، ولم تكن لهم قداسة ذاتية يتسلطون بها على رقاب الناس مستمدة من " الحكم الديني " تزعم لهم

---

[١] مثل شعبي يقال لمن يأخذ الأشياء بمظهرها الخارجي ولا يفطن إلى ما بينها من فروق تمنع الجمع بينها في إطار واحد وإن تشابهت في المظهر .. وإذا طبقناه على العلمانيين ودعاواهم نقول : كله عند العلمانيين حكم باسم الدين !

العصمة ، وتجعلهم وسطاء بين العباد وربهم ، رِضَى الله مرتبط برضاهم ، وغضبه مرتبط بغضبهم ، وبيدهم مفاتيح الجنة والنار ! إنما وقع الاستبداد السياسي – حين وقع – على محور آخر سنتحدث عنه بعد هنيهة ، لا علاقة له بحقٍ موروثٍ عن خليفة الرب (نستغفر الله) يحل به الحاكم ما يشاء ، ويحرّم ما يشاء ، ويدخل في رحمة الله من يشاء ، ويحرم منها ما يشاء ! وقد كان الذين يقع عليهم الظلم من قِبَل أولئك الحكام المستبدين يقاومونه أحيانا ويُقْهَرون عليه أحيانا ، وفي حسهم أنه ظلم لا يرضى الله عنه ولا يقره ، وأن الله سيحاسب أولئك الحكام الظلمة على ظلمهم يوم القيامة ويستخلص لهم حقهم منهم على رؤوس الأشهاد ، وأنهم مهما ادعوا لظلمهم من مبررات " المصلحة " فلن يحميهم من الله حام . وما أبعد الشقة بين ظلم مغضوب عليه من الله والناس ، وظلم مقدس مبارك يُزْعَم له الرضى من الله ، ويطلب من الناس الرضى به باسم الدين !

* * *

والمغالطة الثالثة أن الاستبداد باسم الدين لم يكن هو الاستبداد الوحيد الذي حدث في التاريخ الأوربي وغير الأوربي حتى يكون علاجه إقصاء الدين عن الهيمنة على واقع الحياة !

إن الأباطرة والملوك والأمراء الذين استبدوا بالناس في أوربا حتى جاءت الثورة الفرنسية فأقصتهم عن سلطانهم ، وأقصت رءوسهم عن أجسادهم لم يكونوا يَرْتَدُون زي الدين ! بل كانوا ثائرين على الكنيسة الممثلة للدين ، مناوئين لها ، عاملين على الخروج من سلطانها .. ووصل الأمر بالامبراطور الألماني هنري الرابع الشهير في التاريخ أن خلع البابا " هلد براند " من منصبه ، في حركة تحدٍّ محمومة ، انتهت به إلى التراجع والاعتذار وطلب المغفرة من البابا ، والوقوف ببابه عاري الرأس حافي القدمين في الجليد المتساقط ثلاثة أيام بلياليها ، حتعفا عنه " قداسة البابا " وأعاده إلى " الحظيرة " .. حضيرة الرضى والغفران ! وإن كان قد كتب بعمليته الانتحارية هذه أول سطر في صفحة التمرد على سلطان الكنيسة ، التي انتهت بفصل السلطة الزمنية عن

السلطة الروحية وحصر نفوذ البابا في السلطة الروحية وحدها ، وانتزاع السلطة الزمنية للأباطرة والملوك والأمراء ! [١] .

إنما قصة الأباطرة الذين حكموا " بالحق الإلهي المقدس " أنهم قالوا في أنفسهم : إذا كان البابوات قد زعموا لأنفسهم حقا إلهياً مقدساً استبدوا به علينا وأخضعونا له ، فلنزعم لأنفسنا حقا مماثلا ، ولنسنده لذات الجهة التي استندوا إليها ! ! ثم طلعوا على الناس بدعوى مفادها أن الله هو الذي عهد إليهم أن يحكموا الناس ، ومن ثم فإنهم يحكمونهم بذلك الحق الإلهي المقدس ، وعلى الناس أن يخضعوا لهم في شئون دنياهم كما يخضعون للبابوات في شئون آخرتهم سواء بسواء !

أفيعتبر هذا حكما " دينيا " واستبداداً باسم الدين ، وهو حكم يناوئ الدين ويستقل عنه بسلطانه ، ويسعى بكل الوسائل لتقليص نفوذه وحصره في نطاق محدد ؟ ! وهل تعالج هذه الحالة بفصل الدين عن الدولة ؟ أم قصارى ذلك أن يكون استبدال طغيان بطغيان ؟ ! .

(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [٢] .

ولنترك التاريخ الأوربي ووقائعه ، ولننظر في تاريخنا نحن الحديث ..

هل هؤلاء " العسكر " الذين مارسوا أبشع ألوان الطغيان السياسي ، وارتكبوا من الفظائع في السجون والمعتقلات ما لا مثيل له حتى في عالم الوحوش .. هل هؤلاء كانوا يحكمون باسم الدين ؟ ! أم كانوا " علمانيين " يهدفون إلى محو الدين وإبادة أهله ، ويتتلمذون في حركتهم على الحكم الشيوعي الذي قام أساسا لتأسيس الإلحاد ومحو الدين من الأرض ؟ ! [٣] .

---

[١] راجع قصته الطريفة في أي مرجع من مراجع التاريخ الأوربي في العصور الوسطى .

[٢] سورة محمد [٢٤] .

[٣] كان معظم هؤلاء العسكر عملاء لأمريكا وإن تظاهروا بأنهم أصدقاء لروسيا وأعداء لأمريكا ! فقد كانت هذه اللعبة ذاتها – لعبة التظاهر بعداء أمريكا – جزءاً من الخطة المتفق عليها للضحك على الجماهير (انظر كتاب " لعبة الأمم " لمؤلفه " مابلز كوبلاند ") ثم إنهم كانوا كلهم – سواء تحيزوا لهذا المعسكر أو ذاك –عملاء للصهيونية العالمية التي كانت تحكم المعسكرين في آن واحد ، وتسخرهما لحرب الإسلام !

أفبعد هذه النماذج الصارخة يزعم العلمانيون أن الدين هو سبب الطغيان السياسي ، وأنه لا علاج لذلك الطغيان إلا بفصل الدين عن الدولة ، وإقامة الحكومة العلمانية ؟ !

* * *

سيقول العلمانيون : ما لنا ولهذا الجدل كله ؟ لقد وقع الاستبداد السياسي في تاريخ المسلمين ، واستخدم الدين لإعطائه صبغة شرعية ، وتخذيل المعارضين عن مقاومته .. فلا بد لنا من إقصاء الدين عن السياسة ، ليرتاح الناس – أحرار الفكر – من الطغيان باسم الدين !

ونقول : نعم ! وقع الاستبداد السياسي في تاريخ المسلمين .. فكيف وقع ؟ وما دلالة وجوده ؟ وما طريقة علاجه ؟

ونسأل ابتداء : هل وقع الاستبداد بسبب الدين ؟ !

الدين الذي قال منزله سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) [١] .

ويأمر بالعدل حتى مع الأعداء الشانئين : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [٢] . ويأمر بالعدل حتى مع اختلاف الدين : (.. وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ..) [٣] . ويقول سبحانه في الحديث القدسي : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا .. " [٤] .

أيمكن أن يكون هذا الدين سببا في الظلم ؟ !

---

[١] سورة النساء [٥٨] .

[٢] سورة المائدة [٨] .

[٣] سورة الشورى [١٥] .

[٤] أخرجه مسلم .

كان العلمانيون في مبدأ أمرهم يتهمون التطبيق الواقعي ولا يتهمون الدين ذاته .. ثم تجرءوا بعد ذلك فصار بعضهم يتهم الدين ذاته بإيقاع الظلم على الناس .. وسنناقش في الفصل القادم بعض دعاواهم التي يدّعونها في هذا الشأن . إنما نحن في هذا الفصل في حوار مع " المعتدلين " من العلمانيين الذي يكتفون بإلقاء اللوم على التطبيق !

ويصر العلمانيون جميعاً – معتدلين ومتطرفين – على إبعاد فترة الخلافة الراشدة من دائرة النقاش ، بدعوى أنها فترة فريدة لم تكرر في التاريخ ، فلا يؤخذ بها ، ولا تتخذ مقياسا للحكم الإسلامي . [١] .

ونحن نقرهم على أنها فترة فريدة لم تتكرر – بصورتها الكاملة – في التاريخ . ولكنا – من جهة أخرى – لن نكف عن الاستشهاد بها من أجل دلالتها ، لا من أجلها في ذاتها ..

إن المزية الكبرى لهذه الفترة أنها شهدت التطبيق الكامل لهذا الدين . ومن ثمّ فهي صورته الحقيقة مطبقة في عالم الواقع .

ولهذا الأمر دلالتان اثنتان على الأقل . الأولى أن هذا الدين ليس مثاليات معلقة في الفضاء غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع ، ما دام قد أمكن تطبيقها بالفعل .. والثانية أنه ما دام الذين طبقوها كانوا بشرا – لا ملائكة – ففي طوق البشر إذن أن يطبقوها في أي فترة من فترات التاريخ إذا عزموا على ذلك وأجمعوا أمرهم عليه . وقد وجدت بالفعل نماذج غير قليلة من التطبيق الصحيح لهذا الدين على مدار التاريخ . فلا شيء يمنعنا اليوم من محاولة ذلك . ولن

---

[١] يصل التبجح بببعض العلمانيين أن يتهموا عهد الخلافة الراشدة ذاته بالاستبداد السياسي ، مستشهدين بقول عثمان رضي الله عنه للذين طلبوا منه التنحي عن الحكم : " لا أنزع قميصا سربلنيه الله " فيقولون إن عثمان رضي الله عنه كان يحكم بالحق الإلهي المقدس الذي كان سند الطغيان السياسي في أوربا ! وعثمان رضي الله عنه لم يقصد بهذه الكلمة إلا أن الله قد منّ عليه بأن تولى الأمر عن رضا واختيارٍ حرٍّ من الأمة وأن الأمة لم تنزع ثقتها منه حتى يتنحى . وإنما المحتجون عليه ، المطالبون بتنحيته شرذمة قليلة لا يمثلون رأي الأمة ، وهذه كانت الحقيقة ، بدليل حماية الصحابة لداره أثناء الفتنة . ولو كانوا يرون عزله لتركوه للثائرين عليه ، وإنما هم أخذوا عليه أشياء لا تؤدي في نظرهم إلى عزله .

يكون " الدين " هو العائق لنا إذا حاولنا ، بل سيكون الدين – بأصوله المنزلة ، وصوره المشرقة حين طبق تطبيقاً صحيحاً – هو الدافع والحافز والمعين .

لم يكن الدين إذن هو سبب الطغيان (وسنرجئ النقاش مع متطرفي العلمانيين إلى الفصل القادم) إنما كان السبب سوء التطبيق .

ولكن سنسلم – توفيراً للجدل – بأن الدين استخدم في بعض العهود ستاراً للاستبداد السياسي . وأن " علماء السلطة " استخدموا الدين لمساندة الطغيان السياسي وإضفاء صفة القداسة عليه ، وتخذيل " الجماهير " عن الخروج عليه أو المطالبة بتغييره .. سنسلم بهذا على الرغم من النماذج البارزة التي وعاها التاريخ من قيام علماء أعلامٍ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدي لظلم الحكام – وإن أوذوا في سبيل ذلك وسجنوا وعذبوا – وقيام قضاة بإصدار أحكام ضد الحكام أو ضد من يلوذون بهم ممن يستغلون جاههم في إيقاع الظلم بالناس .. ولعل من أروع تلك النماذج ما فعله العز بن عبد السلام من تهديد المماليك – الحكام – ببيعهم في الأسواق ، والإنفاق من ثمن بيعهم على الجهاد في سبيل الله إن لم يقوموا هم بالجهاد والإنفاق عليه من أموالهم !

فما الذي نستخلصه من أحداث ذلك التاريخ الذي وقع فيه الاستبداد السياسي ؟

نستخلص مجموعة من الحقائق ..

الحقيقة الأولى أن " الدين " لم يردع هؤلاء الحكام عن الظلم ، وكان ينبغي أن يردعهم عنه .. أما القول بأن هذا الظلم نشأ عن وضع ديني يشبه وضع " الحكومة الثيوقراطية " في تاريخ النصرانية فهو قول لا سند له من الواقع . فعصيان الحكام لأوامر الدين شيء – ولا ينشأ الظلم أساسا إلا من عصيان أوامر الدين – ووضع التشريعات الظالمة باسم الدين أمر آخر ، لا يتعلق بالتطبيق ولكن بحق التشريع . فأما المعاصي فهي التي وقعت من حكام المسلمين ، وهم يتحملون وزرها ولا شك ، وأما التشريعات الظالمة فهي التي وقعت من الحكومة الثيوقراطية التي

أعطت نفسها حق الهيمنة الكاملة على أموال الناس وأرواحهم وأفكارهم وعقائدهم ومعلوماتهم وحصائد ألسنتهم ، بل خطرات نفوسهم التي لم ينطقوا بها وأكنّوها في صدورهم !

والحقيقة الثانية أن ذلك الاستبداد السياسي وجد سنداً من " علماء السلطة " وكان واجبهم أن يقفوا في وجهة ويقوموه بدلاً من أن يساندوه . وتلك معصية أخرى لأوامر الله ورسوله أنذر الله أصحابها في الكتاب المنزل بالعذاب الأليم :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [١] .

والحقيقة الثالثة التي هي في نظرنا أهم هذه الحقائق جميعاً هي أن الأمة قد فرطت في دينها يوم استكانت للاستبداد السياسي ولم تقاومه ، وتركته حتى رسخ في أرض الواقع ، وأصبح كأنه أصل من الأصول !

لا الله أمر بذلك ، ولا رسوله صلى الله عليه وسلم .

صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شدد على عدم الخروج المسلح على الحاكم الذي يلتزم بشريعة الله ، ولكنه يجور في التطبيق ، مخافة الوقوع في الفتنة التي يفوق ضررها جور الحاكم .. ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بالرضى بهذا الجور أو السكوت عليه :

" ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . **وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل** " [٢] .

---

[١] سورة البقرة [١٧٤] .

[٢] أخرجه مسلم .

" إنه يستعمل عليكم أمراء ، فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، **ولكن من رضى وتابع** " [١] .

" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " [٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام : " الدين النصيحة " قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : " لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم " [٣] .

ونستخلص من ذلك كله عبرة أخيرة هي لب الموضوع ..

إذا كانت هذه الأمة لسبب من الأسباب قد فرطت في الضمانات الربانية التي يكفلها لها دين الله المنزل ، الذي تدخل بطاعته الجنة ، ويعرّضها التفريط فيه لعذاب النار ، فضلا عما يصيبها في الحياة الدنيا من ذل وانكسار وبوار .. إذا كانت قد فرطت في تلك الضمانات الربانية لسبب من الأسباب ، فهل فصل الدين عن السياسة هو الذي سيجعلها تحرص على حقوقها وتمارسها في عالم الواقع ؟ !

وهذه تجربة الحكم العلماني الذي غرقت فيه الأمة خلال قرن من الزمان أو أكثر .. كم من المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ارتكبت فيه ؟ ! فأين ذهبت ضماناته ؟ ! ومتى حرصت الأمة على حقوقها بعد تنحية الحكم بشريعة الله ، والحكم " بالدساتير " المجلوبة من الغرب ؟ !

إن العبرة التي تستخلص من تاريخ هذه الأمة أنه حدث نقص هائل في التربية السياسية للأمة ، ترتب عليه تفريطها في حقوقها التي كتبها الله لها في دينه المنزل ، بل جعلها واجباً عليها ، وجعلها من مقتضيات لا إله إلا الله ، وأن التربية السياسية على الأصول الإسلامية التي

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه الشيخان .

أقامتها الخلافة الراشدة لم تواكب التربية الروحية والفكرية والخلقية والجهادية التي ركز العلماء والمربون عليها أكثر من التربية السياسية حتى في فترات الازدهار ، فضلا عن فترات الانحسار !

وليس العلاج لذلك هو فصل الدين عن الدولة ، وإخراج السياسة من الدين !

فالأمة التي فرطت في دين الله وضماناته ، لن تحرص على الضمانات التي تحملها الديمقراطية أو غيرها من نظم الحكم البشرية ، ومن السذاجة المفرطة أن يظن أحد غير ذلك . فإنه لا يوجد نظام – بشري أو رباني – يحمل ضماناته بصورة آلية ، إنما تعمل الضمانات من خلال البشر الذين يؤمنون بها ، **ويتربون على ممارستها في عالم الواقع** ، وعلى عدم التفريط فيها ، حتى تصبح جزءاً من كيانهم الحيّ الذي يعيشون به ..

فإذا كان لا بد من التربية في كل حالة ، سواء كان النظام المطلوب تطبيقه بشرياً أو ربانيا ، وإذا كانت النظم – كل النظم – لا تؤتي ثمارها ولا تعطي ضماناتها إلا من خلال تلك التربية ، فما الذي يجعلنا نبذل الجهود المضنية – إن بذلناها حقا ! – في نظام لا يوافق عقيدتنا ، ولا يرضي ربنا ، ونخسر فيه آخرتنا ، حتى لو فرضنا جدلا أننا نكسب فيه دنيانا ، بينما نحن – لو قمنا بالتربية على النظام الحق – نملك خير الدنيا والآخرة .. والجهد المطلوب في التربية على النظام الحق هو ذات الجهد المطلوب للتربية على غيره ، بينما الثمرة خلاف الثمرة ، والمذاق غير المذاق ؟ !

إنها لحماقة لا يقدم عليها عاقل .. أن نتعب ونتعب ونتعب ، في تجارة خاسرة في نهاية المطاف :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [1] .

بينما نحن نملك بذات الجهد أن نربح الكثير :

---

[1] سورة البقرة [١٦] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (١) .

(١) سورة الصف [١٠ – ١٢] .

الديمقراطية والإسلام

سنناقش بحول الله في هذا الفصل قضيتين أساسيتين ..

القضية الأولى هي أنه إذا كان هناك خلاف بين الديمقراطية والإسلام – وهو كائن بالفعل كما سوف نرى من البحث – فأي شيء يجب على المسلم ؟ يأخذ بالديمقراطية أم يطبق الإسلام ؟

بعبارة أخرى : هل يُعْرَض الإسلام على الديمقراطية لتقبل منه ما تقبل وترفض منه ما ترفض ؟ أم تعرض الديمقراطية عل الإسلام ليقبل منها ما يقبل ويرفض منها ما يرفض ؟

والقضية الثانية : هل يصلح النموذج الأوروبي – أي النموذج العلماني – ليكون منهجا لحياتنا ، ولحياة البشرية ؟ وإذا لم يكن يصلح فما البديل ؟ !

* * *

لعل القضية الأولى واضحة :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [١].

ولكن لأن الجدل يدور حولها في غربة الإسلام الثانية فنحن نناقشها مع الذين يجادلون في أمرها ، كما كان القرآن يناقش غبش التصورات الفاسدة في العقيدة والعبادة والتشريع في الجاهلية الأولى .

---

[١] سورة الأحزاب [٣٦] .

إن كون الشريعة ملزمة للمسلم الذي ينطق بفمه شهادة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " (ولو كان ينطقها نفاقا !) ، وكون التشريع بغير ما أنزل الله مخرجاً من الملة ، قضية مجمع عليها من علماء الأمة جميعا ، لم يشذ أحد عنها ، ولا يجرؤ أحد أن يشذ !

وهي قضية مختلفة في بعض جوانبها عن قضية الحكم بغير ما أنزل الله ، لذلك لزم التنويه إليها ..

ليس كل من يحكم بغير ما أنزل الله خارجا من الملة .. فقد يكون متأولا ، وقد يكون مخطئا في اجتهاده ، وقد يكون عاصيا آثما كالقاضي الذي يرتشي ويحكم في القضية التي بين يديه بغير ما أنزل الله .

ولكنه حين يشرع بغير ما أنزل الله (أي يحل ويحرم بغير ما أنزل الله) فهو خارج من الملة بإجماع ..

* * *

لقد جعل الله المحك الذي يكشف نفاق المنافق ويخرجه من الإيمان الإعراض عن شريعة الله ..

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ **يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ** مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا **أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ **إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ** وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [١] .

---

[١] سورة النور [٤٧ – ٥١] .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ **يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا** بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ **يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا** إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً) [١] .. (فَلا وَرَبِّكَ **لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ** فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) [٢] .

ففي الآيات الأولى قوم يزعمون الإيمان بالله ورسوله ، ويزعمون فوق ذلك أنهم مطيعون لله ورسوله (وورد في آيات أخرى في سورة النساء أنهم يؤدون الشعائر كذلك وإن كان على كسل وتراخ [٣]) ثم يُدْعَوْن إلى شريعة الله ليتحاكموا إليها فيعرضون عنها ويطلبون التحاكم إلى غيرها ، فينفي الله عنهم الإيمان نفيا باتا : " وما أولئك بالمؤمنين " ثم يبين الله موقف المؤمنين من هذا الأمر ، وهو أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى شريعة الله يقولون " سمعنا وأطعنا " ويسارعون إلى التنفيذ .

وفي الآيات الثانية قوم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو الوحي المشتمل على شريعة الله في الكتاب والسنة ، وما أنزل من وحيٍ قبل ذلك ، ثم هم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به (والطاغوت كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره : " كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنساناً كان ذلك المعبود ، أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء " [٤] ويبين سبحانه وتعالى أنهم بذلك خارجون من الإيمان ، وأنهم لا يؤمنون حتى يحكموا شريعة الله راضية بها نفوسهم ، مطمئنة بها قلوبهم ، عالمين أنها هي الخير ، وهي الحق ، وهي الصراط المستقيم ..

---

[١] سورة النساء [٦٠] .

[٢] سورة النساء [٦٥] .

[٣] قال تعالى " إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا " [سورة النساء : ٤٢] .

[٤] تفسير الطبري ، تحقيق محمود شاكر ٤١٩/٥ الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر .

ويلاحظ التشديد الواضح في عبارة الآية الكريمة بالقسم مع النفي " فلا وربك لا يؤمنون .. " والتوكيد الذي تتضمنه لفظة " ثم " " ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت " والتوكيد بعد ذلك بالمفعول المطلق " ويسلموا تسليما " .. وكل ذلك لإظهار بشاعة الجريمة التي يرتكبها هؤلاء بإرادتهم التحاكم إلى غير شريعة الله .. وبيان أنها قضية تتصل بأصل العقيدة ، لأن الإيمان منفي بتاتاً عن مرتكب ذلك الجرم الشنيع . وقد سبق أن بينا في الفصل السابق أن التشريع بغير ما أنزل الله هو أحد جذور الشرك الثلاثة الكبرى ، يتساوى في جرمه مع اعتقاد آلهة أخرى مع الله ، وتوجيه شيء من العبادة لغير الله .

ولو أن هؤلاء استسلموا لشريعة الله على كره في دخيلة نفوسهم وريبة فإنهم لا يحققون " الإيمان " الذي يتطلبه الله من عباده ويدخلهم به جنته ، ولكنهم – في الدنيا – يعتبرون مسلمين بحسب الظاهر من أمرهم كما قال الله عن الأعراب : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) [1] ولكنهم وقد أظهروا إرادتهم التحاكم لغير شريعة الله فقد انتفى عنهم الإيمان والإسلام كلاهما ويطبق عليهم حد الردة في الدولة المسلمة التي تحكم بما أنزل الله . فإن أرادوا أن يتوبوا ويدخلوا في الإيمان الحق ، فقد وجب عليهم أن ينفذوا الشروط الواردة في الآية بحذافيرها ، وهي التحاكم إلى شريعة الله عن رضا وتسليم واقتناع .

تلك هي القضية في وضوحها وبساطتها .. وقد كانت بهذا الوضوح وهذه البساطة طوال ثلاثة عشر قرنا من حياة المسلمين ، لم يجادلوا فيها ، ولم يتصوروا قط أن المسلم يمكن أن يُحْكَم بغير ما أنزل الله من ناحية التشريع ، وإن كانت المخالفات في التطبيق قد حدثت – في سياسة الحكم خاصة – وأنكرها المنكرون باليد أو اللسان أو القلب . أما التشريع بغير ما أنزل الله فلم يحدث في التاريخ الماضي سوى مرة واحدة حين حكم التتار – قبل أن يستقروا على الإسلام الصحيح – أي بدستور من صنع البشر ، فحكم عليهم العلماء بالكفر الصريح حتى يرجعوا عنه ، ويحكُموا بشريعة الله وحدها ، لا يحكِّمون سواها في قليل ولا كثير .

---

[1] سورة الحجرات [١٤] .

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

" ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير " [١] .

ولكن الواقع المعاصر جاء بانحرافين خطيرين ، من أخطر ما مر بالمسلمين في حياتهم : تنحية الشريعة عن الحكم من ناحية ، ووجود " علمانيين " يتبجحون برفض شريعة الله ، ويناوئون الذين يطالبون بالعودة إلى تحكيم شريعة الله !

ولقد جاء هؤلاء العلمانيون ثمرة للغزو الفكري الذي اجتاح حياة المسلمين حين فرغت نفوسهم من حقيقة الإسلام ، وأصبح الدين في حياتهم " تقاليد " خاوية بغير روح ، فاكتسحها الغزو الفكري اكتساحا ، وأجلاها من مواقعها ، ووضع في مكانها فكراً دخيلاً ما أنزل الله به من سلطان .

---

[١] تفسير ابن كثير ، ج ٢ ص ٦٨ .

قلت في أكثر من كتاب [١] إن الهزيمة العسكرية التي أصابت المسلمين أمام قوى الغرب الظافر الكاسح ، لم تكن وحدها التي أثرت في كيان المسلمين وجعلتهم يتقبلون الغزو الفكري ، ويتشككون – لأول مرة في حياتهم – في قيمهم الدينية ، وشريعتهم الربانية ، وأخلاقياتهم وأنماط سلوكهم ، ويستبدلون بها أفكار أوروبا وقيمها وتصوراتها . إنما المسئول الأول عن ذلك هو الخواء العقدي الذي آل إليه المسلمون في العهود الأخيرة بسبب ما أصاب عقيدتهم من أمراض وانحرافات خلال القرون ..

لقد علّم الله المسلمين في كتابه المنزل ألا يهنوا ولا يحزنوا ولو أصابتهم الهزيمة العسكرية أمام أعدائهم . ما داموا مؤمنين :

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [٢]

وقد وعوا الدرس فلم يهنوا ولم يحزنوا حين انهزموا أمام التتار وأمام الصليبيين هزائم ساحقة ، بل تجمعوا ، وجمعوا عزيمتهم ، وردوا الكرة عليهم ، وكانوا في أثناء ذلك كله يحتقرونهم ويشمئزون من كفرهم وشركهم وفساد أخلاقهم وأنماط سلوكهم ، لأن جذوة الإيمان كانت ما تزال حية في القلوب ..

أما في المرة الأخيرة فقد أثرت الهزيمة العسكرية هذا التأثير الهائل ، لأنها لم تكن وحدها ، بل صحبتها هزيمة روحية أمام " الحضارة الغربية " نشأت من الشعور بالإفلاس الحضاري من جانبهم .. وقد كان هذا الإفلاس حقيقة واقعة ، ولكن سببه لم يكن " الدين " كما ظن المنهزمون في وهلة الهزيمة ، إنما كان هو الخواء العقدي الذي جرّد العقيدة من نتاجها الحيّ : الحضاري والفكري والعلمي والسياسي والحربي ..

---

[١] انظر – إن شئت – على سبيل المثال كتاب " واقعنا المعاصر " فصل " خط الانحراف " وفصل " آثار الانحراف "

[٢] سورة آل عمران [١٣٩] .

ولأول مرة في حياة المسلمين سعى " المثقفون " ، الذين يفترض فيهم أنهم قادة الأمة ، إلى محاولة إبعاد الأمة عن كل ما يتصل بدينها وتراثها وعقيدتها وشريعتها ، لينطلقوا في وهمهم إلى الحياة والقوة والتقدم والرقي ! وقام فيهم من يجادل لا في وجوب الالتزام بتطبيق الشريعة ، بل في حق الله سبحانه وتعالى في التفرد بالحاكمية والتشريع ، الذي هو – في زعمهم – حق خالص " للأمة " مصدر السلطات .. لا يشاركها فيه أحد .. حتى الله ! نستغفر الله ..

* * *

في كتاب " حول تطبيق الشريعة " ناقشت بعض الدعاوى التي يثيرها العلمانيون في فصول تحمل هذه العناوين : " هل تنفصل العقيدة عن الشريعة في دين الله ؟ " " هل لولي الأمر أن يتصرف في أحكام الشريعة بحسب الأحوال " " شبهة التطور وعدم صلاحية الشريعة للأحوال المستجدة " " شبهة تعارض أحكام الشريعة مع مقتضيات الحضارة الحديثة ووجوب الأخذ بمعايير الحضارة دون الشريعة " " شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب وجود الأقليات غير المسلمة " " شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب الدول العظمى وضغطها على العالم الإسلامي " .

وفي الندوات الأخيرة التي أقيمت بين العلمانيين والإسلاميين أثار العلمانيون بعض الدعاوى التي لم يرد ذكرها في كتاب " حول تطبيق الشريعة " لا تقل سخفاً عنها وبعداً عن الموضوعية و " العلمية " ، نتعرض لأبرزها في هذا الفصل ، لا لأنها تستحق الرد في ذاتها ، ولكن لبيان عدم موضوعيتها ، وبيان جانب المغالطة فيها .. وإذا كان القرآن الكريم قد ورد فيه الرد على دعوى اليهود بأن يد الله مغلولة ، وأن الله فقير وهم أغنياء ، على كل ما في الدعوى من جهل وسخف وتوقح على مقام الألوهية ، فلا بأس علينا أن نبين مدى بُعد دعاوى العلمانيين عن الجدية اللازمة " للبحث العلمي ! " ومدى بعدها عن الصواب .

من تلك الدعاوى أنه لا شيء في الواقع يسمى " تطبيق الشريعة " ! فالذي يطبق بالفعل ليس هو الشريعة الربانية ، إنما هو فهم البشر للنص الوارد في الشريعة ، ومن ثم فهو تشريع

بشري في الحقيقة ! ولكنه – رغم بشريته – يزعم لنفسه قداسة مستمدة من الوحي الرباني ! ويهدد بهذه القداسة من يعارضه فيتهمه بأنه خارج على الدين ! بينما التشريع البشري الخالص ، الذي يصنعه البشر بأنفسهم غير مستندين فيه إلى الدين ، لا قداسة له عند واضعيه ولا عند معارضيه . ومن ثم يناقش بحرية ، ويعدل أو يلغى إذا اقتضت الضرورة بغير تحرج ولا خوف ! وعلى ذلك فالأولى عدم تطبيق الشريعة ، وترك البشر يشرعون كما يحلو لهم ، ويعدلون ويبدلون ، دون خوف في صدورهم ، ولا اتهام لهم بالمروق من الدين !

وكأنهم حين يصنعون ذلك لم يمرقوا من الدين ! !

أي لعب بعقول الناس – بدعوى الموضوعية والعلمية – أشد من هذا اللعب وأسخف من هذا اللعب ؟

إن اختلاف الأفهام حقيقة .. واختلاف الاجتهادات حقيقة ، وخاصة فيما لم يتنزل فيه نص ..

ولكن من يقول – مهما اختلفت الأفهام واختلفت الاجتهادات – إنه لا فرق بين الاجتهاد المنضبط بالضوابط الشرعية والاجتهاد المنفلت من كل ضابط إلا أهواء الناس التي يسمونها " المصلحة " رياء وذرًّا للرماد في العيون ، وهي مصلحة فريق معين من البشر يعيثون في الأرض فسادا ، ويريدون أن يستحمروا " الأمميين " لحسابهم الخاص ؟ !

إن الاجتهاد المنفلت من كل ضابط إلا أهواء الناس ، والمتغلف بالمصلحة رياءً وذرًّا للرماد في العيون ، قد أباح الربا ، وأباح الزنا ، وأباح الفاحشة الشاذة ، وأباح الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله وإنكار التصورات الدينية على الإطلاق ، وأباح لخمس دول بأعيانها أن ترفض الإذعان للحق حين يحيط بها الحق من كل جانب ، برفع إصبع واحدة من يد مندوبها في مجلس الأمن ، فيخضع الجميع ويذعنون للظلم البيّن ، وأباح لدولة بعينها – باسم النظام العالمي الجديد – أن تنزل قواتها في أي بقعة في الأرض تزعم أن فيها ما يخالف " القيم والمبادئ ! ! " فتقتل

أهلها وتخرب أرضهم وديارهم وتتلقى الشكر العالمي على ذلك .. وأباح .. وأباح .. وأباح .. وجعل ذلك كله شرعا مرعيا تحميه الدولة أو الدول ذات الشأن بسلطانها وجيوشها ! !

هل يمكن أن يحدث ذلك في الاجتهاد المنضبط بالضوابط الشرعية ؟ !

يختلف الفقهاء ما اختلفوا .. فهل يمكن أن يحلوا الربا [1] ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا .. فهل يمكن أن يحلوا الزنا ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا .. فهل يمكن أن يحلوا الفاحشة الشاذة ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا .. فهل يمكن أن يحلوا الخمر ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا .. فهل يمكن أن يحلوا تعري الرجال والنساء على شواطئ البحار ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا .. فهل يمكن أن يحلوا لوسائل الإعلام – أو لأيٍّ كان – أن يهاجم الدين ، أو ينكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو يحرض على معصية أوامر الله ؟

إن معاصي كثيرة يمكن أن تحدث حتى في المجتمع المسلم الملتزم بتطبيق الشريعة ، ولسنا عن هذا نتحدث .. إنما نتحدث عن التشريع الذي يحل هذه المعاصي ويعتبرها أمرا مباحا لا جناح على مرتكبيه .. وفرق كبير بين وقوع المعصية مخالَفَةً للشرع ، وتوقيع العقوبة المنصوص عليها حين تقع وبين أن تكون مباحة بنص القانون ، في الأولى يمكن أن يقوم مجتمع " إنساني " تقع فيه الخطيئة بين الحين والحين ، ولكنها لا تكون هي الأصل ، وفي الثانية يقوم مجتمع " حيواني " الخطيئة فيه هي الأصل ، والامتناع عنها هو الشذوذ !

---

[1] يكثر جدل " العصريين " المتأثرين بثقل الأمر الواقع في كون بعض المعاملات كالسندات التي تصدرها الدولة داخلة في الربا المحرم أم غير داخلة فيه ، ولكن أحدا من هؤلاء لا يجرؤ على تحليل الربا من حيث المبدأ .

ولسنا نقصد بالخطيئة جريمة الزنا وحدها كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من كلامنا .. فالربا خطيئة ، تؤدي – كما قال الخبير الألماني شاخت – إلى تزايد المال في طبقة يقل تعدادها على الدوام ، وتزايد الفقر في طبقة يزيد تعدادها على الدوام . ويُسْحَقُ جمع هائل من البشر تحت ضغطٍ هائل مخيف يسلطه بضعة نفر من آكلي أموال الناس بالباطل على جموع " الكادحين " .. والظلم السياسي الذي تمارسه الوحوش الكبرى التي تسمي نفسها الدول العظمى خطيئة تؤدي إلى إذلال الدول الصغيرة وإفقارها ونهب خيراتها وسحق كرامتها إرضاء لشهوة السلطان عند تلك الوحوش . وإباحة الإلحاد خطيئة تهبط بالإنسان من شفافيته التي خلقه الله عليها حين خلقه " في أحسن تقويم " ، وتحصره في محيط ما تدركه الحواس ، فيهبط " أسفل سافلين " ويصبح كما وصفه الله (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [١] .. الغافلون بكل معاني الغفلة ، السادرون في الوهم والجهالة وعمى البصيرة . وإيجاد العداوة بين الدين والعلم خطيئة .. فالدين نزعة فطرية لم تغادر النفس البشرية أبدا حتى حين عملت الشيوعية على قتلها بالحديد والنار والتجسس ، فبمجرد أن سقطت الشيوعية عاد الناس إلى مساجدهم وكنائسهم ، إلا من أكل الشيطان قلبه ، والرغبة في التعلم نزعة فطرية خلقها الله في الإنسان ليقوم بعمارة الأرض كما كلفه : (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [٢] وإقامة الصراع بين نزعتين فطريتين متعاونتين في الأصل غير متعارضتين ، خطيئة في حق " الإنسان " تمزقه وتسلبه طمأنينته لحساب الشيطان ! وعشرات من الخطايا وعشرات تشرع لها الجاهلية أو تجعلها مباحة حين تنفلت من كل ضابط إلا الأهواء !

أَوَ كذلك يحدث في الاجتهاد المنضبط بضوابط الشريعة مهما اختلفت الأفهام واختلفت اجتهادات الفقهاء ؟ !

---

[١] سورة الأعراف [١٧٩] .

[٢] سورة هود [٦١] .

إنني – والله – أشك كثيرا فيمن يلغو مثل هذا اللغو أنه يصدق حقيقةً ما يقول ! ... إلا أن يكون قد قصد قصداً إلى اللعب بالعقول !

إن اختلاف الفقهاء هو من مزايا هذا الدين .. فقد ترك الله أمورا كثيرة للاجتهاد ، رحمة منه غير نسيان كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلم الله – وقد أباح الاجتهاد فيما لم يتنزل فيه نص – أن أفهام البشر تختلف ، واجتهاداتهم تختلف " أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " [١] . فكأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أَذِنَ بهذا الاختلاف في تطبيق شريعته المنزلة ، توسعة على الناس ورفعاً للحرج عنهم ، ولو شاء لأعنتهم كما قال سبحانه في كتابه العزيز : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [٢] .. أفتتخذ هذه التوسعة المنضبطة أولا وآخرا بألا تحل حراماً ولا تحرم حلالا ذريعة للتسوية بين حكم الشريعة وحكم القوانين الوضعية ، بل لتفضيل القوانين الوضعية على حكم الشريعة ، مع كل ما تحمله تلك القوانين من ألوان الفساد ؟ ! .

* * *

هذه النقطة ذاتها – نقطة اختلاف الفقهاء في اجتهاداتهم – يتخذها بعضهم ذريعة لإلغاء حكم الشريعة كله من زاوية أخرى ، فيتصايحون ، في بلاهة حقيقية أو بلاهة مفتعلة : قولوا لنا كيف نطبق الشريعة ! بأي الأقوال نأخذ ؟ ! بقول هذا الفقيه أم ذاك الفقيه ، وكل واحد منهم له رأي في المسألة يخالف رأي الآخر ؟ ! حددوا لنا أي الأقوال هوالشريعة التي تريدون تطبيقها ! !

ويحسبون أنهم بهذا التصايح الأبله يربكون الإسلاميين المطالبين بتحكيم الشريعة ، ويخذّلونهم عن تلك المطالبة الملحّة التي تفزع العلمانيين أي إفزاع !

وكأنما اختلاف الفقهاء قد نبت فجأة في هذه الأيام ، وليس عمره نيّفاً وأربعة عشر قرنا من الزمان !

---

[١] سورة الملك [١٤] .

[٢] سورة البقرة [٢٢٠] .

وكأنما القوانين الوضعية من الجانب الآخر قول واحد ومدرسة واحدة واجتهاد واحد لا يأتيه الاختلاف من بين يديه ولا من خلفه !

كيف كانت تطبق الشريعة خلال ثلاثة عشر قرنا مع اختلاف المذاهب واختلاف الاجتهادات ؟ !

وكيف يختارون هم قوانينهم الوضعية من بين الآراء المختلفة والدساتير المختلفة والنظريات المختلفة ؟ !

أهذا نقاش " علمي " ؟ أهذه " موضوعية " ؟ !

" مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ " [١]

إنما تعتمد الدولة المسلمة اجتهاداً معيناً من هذه الاجتهادات – يرى فقهاء عصرها أنه الأكثر تحقيقا للمصلحة – فتجعله هو الشرع الملزم في لوائحها وتنظيماتها الإدارية ومحاكمها ، وتترك للقضاة حرية التحرك في حدود ذلك الاجتهاد الملزم ، كما يترك للقاضي في ظل القانون الوضعي أن يحكم بأدنى العقوبة أو أقصى العقوبة أو يسقط الدعوى لعدم كفاية الأدلة ..

أين المشكلة ؟ !

إنما هي الرغبة في وضع العراقيل في طريق تحكيم الشريعة ، وإيهام الناس أن الفوضى ستضرب أطنابها يوم تحكم الشريعة ، ويختلط الحابل بالنابل ، وتضيع الحقوق ، ويختل النظام ! !

ألا يستحي هؤلاء من صور الفوضى الاجتماعية والأخلاقية واضطراب الأمن وشيوع الجريمة وانفلات الناس من آدميتهم في ظل القوانين الوضعية التي يريدون التحاكم إليها بدلا من شرع الله ؟ !

* * *

---

[١] سورة الزخرف [٥٨] .

صيحة أخرى يتصايح بها العلمانيون لمحاولة تخذيل المطالبين بتحكيم الشريعة ..

أرونا برامجكم ! نريد برامج عملية قابلة للتنفيذ ، لا مجرد التصايح بتحكيم الشريعة .. أرونا كيف تحل الشريعة التي تريدون تطبيقها مشاكل التخلف الاقتصادي والتضخم السكاني والديون المتراكمة والمعدات الخاوية والأيدي المتعطلة إلخ .. إلخ

وهذه الصيحة التي يرددها العلمانيون كلما علت أصوات المطالبين بتحكيم الشريعة ، يحسب أصحابها أنها القنبلة المدمرة التي ستعصف بكيان الإسلاميين وتكشف عجزهم وضعف موقفهم ، وتصرف الناس عن تأييدهم والالتفاف حولهم .. بينما هي في الحقيقة تكشف عن مدى تدني " الحس الإسلامي " في واقعنا المعاصر ، ومدى تغلغل الغزو الفكري في حياتنا ، وتأثيره في طريقة تناولنا لقضايانا الرئيسية .. حتى قضايا العقيدة !

إن القضية من وجهة النظر الغربية التي صرنا نتناول بها قضايانا أن هناك " جماعة " أو " حزبا " يرفع شعاراً معيناً يريد أن يجعله أساساً للحكم . وإذن فليقدم هذا الحزب برنامجه ، ليحكم الناس له أو عليه ، ويعطوه أصواتهم أو يحجبوها عنه ، بحسب اقتناعهم بالبرنامج أو عدم اقتناعهم به !

أما القضية من وجهة النظر الإسلامية فمختلفة تماماً ..

إن تحكيم الشريعة الإسلامية أمر لا يخص فرداً معيناً أو جماعة معينة حتى تكون هي المختصة بأمره ، المطالَبَةَ بوضع البرنامج لتنفيذه ! .. إنه أمر كل مسلم .. كل مسلم ينطق بفمه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، مطالب أمام ربه بتحكيم الشريعة الربانية . فإن كانت محكّمة بالفعل فبها ونعمت . وإن لم تكن قائمة فهو يخرج من دائرة الإسلام أصلا إن رضي بهذا الأمر وتابع ، كما نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .. فضلا عن أن يتبجح برفض تحكيم الشريعة ، أو يطالب بعدم تحكيمها !

أما البرامج التطبيقية فقد تختلف فيها وجهات النظر ، وقد تتناقش فيها الجماعات المختلفة ، وقد يعرض الأمر على أهل الاختصاص ليروا أي وجهات النظر أصوب .. ولكن هذا كله لا

يتعلق بالأصل ، وهو تطبيق الشريعة التي يجب أن تكون هي المظلة التي يقف تحتها كل من ينطق بفمه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والتي في ظلها تفكر الأمة المسلمة ، وفي ظلها تستعرض برامجها .

لقد جعل الله التحاكم إلى شريعة الله محكًّا للإيمان ، شأنه شأن الاعتقاد بوحدانية الله ، وتوجيه كل ألوان العبادة له وحده بلا شريك :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [١]

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) [٢]

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) [٣]

وكما أن الإيمان بالله الواحد مسئولية كل مسلم على الإطلاق ، لا مسئولية بعض الناس دون بعض ، وكما أن توجيه العبادة لله وحده بلا شريك مسئولية كل مسلم على الإطلاق ، لا مسئولية بعض الناس دون بعض ، فكذلك التحاكم إلى شريعة الله هو مسئولية كل مسلم على الإطلاق ، وليس مسئولية بعض الناس دون بعض .

والأصل في حياة هذه الأمة أن تكون الشريعة الربانية هي الحاكمة فيها ، دونما حاجة لأن يطالِبَ بذلك فرد منها ولا جماعة ، لأنها إلزام رباني ، لا يتوقف على مطالبة أحد أو عدم مطالبته . إنما يقوم به المؤمنون تعبداً واحتساباً ، ولا يملكون ألا يقوموا به لأنهم إن رفضوه فإنهم يخرجون بذلك من أصل الإسلام ، وكذلك إن رضوا بتحكيم شريعة غير شريعة الله .

---

[١] سورة محمد [١٩] .

[٢] سورة النساء [٣٦] .

[٣] سورة النساء [٦٥] .

وإذا كان الأمر الواقع اليوم أن هناك دعاة وجماعات تطالب بتحكيم الشريعة فسبب ذلك أن الغزو الصليبي قد قام بتنحية الشريعة عن الحكم في البلاد الإسلامية التي دنستها قدماه ، واستكانت الأمة لما أحدثه الغزو الصليبي فترة من الوقت ، ثم قام دعاة وجماعات من الأمة بالدعوة إلى إعادة الأمور إلى أصلها الذي كانت عليه من قبل ذلك الغزو الغادر ، وتحملوا مسئولية الجهاد في هذا السبيل . ولكن ليس معنى هذا أن يكونوا هم المسئولين وحدهم عن هذا الأمر فيطالَبُوا وحدهم بإنجاز ما يجب على الأمة بأكملها أن تقوم به ، ولا معناه أن يعلق تحكيم الشريعة على تقديم هذه الجماعات برنامجا للتنفيذ ! فضلا عن أن يقوم في هذه الأمة من يعلن جهاراً أنه لا يوافق على تطبيق الشريعة ! وفضلا عن أن يؤخذ المطالبون بتحكيم الشريعة فيقتّلوا ويعذّبوا ، ويتهموا بالخروج على " الشرعية ! " كأنما توجد في الإسلام شرعية بغير شريعة ! !

كذلك فإن تحكيم الشريعة أمر لا يخيّر فيه الناس ولا يُسْتَفْتَوْن ، لأن الله يقول : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [١] . والتخيير إنما يكون في أمر يملك الناس فيه الخيار . فإذا قال الله إنه لا خيار في هذا الأمر بل إلزام ، وإنه متصل بأصل الاعتقاد ، فكيف يكون التخيير ؟ !

أيخيّر المسلم في الدولة الإسلامية فيسأل : هل تريد أن تكون مسلما أم تريد الكفر .. والعياذ بالله ؟ !

ولكن الأمر قد وصل بهذه الأمة أن يكون تطبيق الشريعة الذي هو أصل ثابت من أصول الإيمان موضع استفتاء وتخيير ، ثم إذا اختارت أغلبية ساحقة من الناس تحكيم الشريعة اختياراً حراً لا شبهة فيه ولا مراء – كما حدث في الجزائر – قيل لهم : لا نسمح لكم بتنفيذ ما اختارته الأمة .. لأنكم غير ديمقراطيين ! ! !

---

[١] سورة الأحزاب [٣٦] .

وهذا يعيدنا إلى أصل القضية : بأي الأمرين يلتزم المسلم ؟ بالإسلام أم بالديمقراطية ؟ هل يُعْرَض الإسلام على الديمقراطية لتقبل منه ما تقبل وترفض منه ما ترفض ؟ أم تعرض الديمقراطية على الإسلام فيقبل منها ما يقبل ، ويرفض منها ما يرفض ؟ !

وجواب الإسلام معروف !

* * *

ونترك الآن قضية البرنامج التي يتصايح بها العلمانيون كلما ارتفعت أصوات الذين يطالبون بتحكيم الشريعة ، والتي ينخدع بها بعض الدعاة أحيانا ، فينصرفون عن مهمة الدعوة الحقيقية ، وهي تربية جيل من الناس على حقيقة الإسلام ، إلى محاولة وضع برنامج عملي ، للرد على العلمانيين وإبطال حجتهم ! بينما العلمانيون – ومَنْ وراءهم – لا يطلبون البرنامج العملي حقيقةً ! ولو قدم لهم البرنامج لازدادوا طغياناً في حرب الإسلام والمسلمين ! إنما يريدون التشويش والتعطيل ، وصرف الجهود عن الهدف المنشود !

نترك قضية البرنامج لمن يشغل نفسه بالوصول إلى الحكم ! إنما نحن لا نطلب الحكم ، لأننا نعلم أن دون ذلك جهداً ضخما يبذل أولا في تربية الأمة على الإسلام .. وإنما نطالب بأمر أقل من ذلك بكثير .. وهو حرية الدعوة .. حرية توصيل " الكلمة " إلى الناس ..

* * *

نترك قضية البرنامج لننتقل إلى القضية الثانية في هذا المبحث ، وهي : هل تصلح التجربة الأوربية منهجا لحياتنا ، وحياة البشرية .. وإذا لم تكن تصلح فما البديل ؟

إن العلمانيين يريدون أن يكون محك القبول أو الرفض هو الديمقراطية وليس الإسلام ..

وبصرف النظر عن إخلاص العلمانيين الحقيقي للديمقراطية ، وهم الذين كانوا يؤيدون أبشع ألوان البطش السياسي في تاريخ هذه الأمة – بطش العسكر – لمجرد أنه يضرب المسلمين ، والذين وقفوا ضد الديمقراطية جهاراً حين أوصلت الإسلاميين إلى الحكم في الجزائر .. بصرف

النظر عن ذلك فسوف نناقش الأمر مع العلمانيين من الناحية الموضوعية ، كما ناقش يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن :

(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [١]

إن الديمقراطية – بيقين – ليست فكرا ذاتيا للعلمانيين أتوا به من عند أنفسهم ، إنما هو فكر مجلوب ، أتوا به من الغرب ، وهم لا ينكرون ذلك بل يفاخرون به ..

وأوربا – حسب تجربتها الخاصة – معذورة حين تنادي بالديمقراطية وتصر عليها ، لأنها لم تعرف في حياتها سوى نوعين اثنين من الحكم : الدكتاتورية والديمقراطية ، وقد ذاقت كل أنواع الويل في الدكتاتورية ، ولم تنل حقوقها وضماناتها إلا في الديمقراطية فهي حريصة عليها كل الحرص . وهي تقيس – حسب تجربتها الخاصة – كل أنواع الحكم على ميزانها الخاص ، فكل ما ليس ديمقراطية فهو دكتاتورية ، وهو معيب ومرذول ، والحكم الديني " الثيوقراطي " هو في ميزانها في خانة الدكتاتورية – وقد كان كذلك بالفعل في التجربة الأوربية – فهو معيب ومرذول .

أما المسلمون فلهم ميزانهم الخاص ، وهو ميزان لا يأتون به من عند أنفسهم ، لأن هذه القضايا ليست مما ترك للبشر ليحكموا فيه ، بل هي داخلة في عموم قوله تعالى : (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) [٢] وقوله تعالى : (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [٣] أي أنه سبحانه هو صاحب الأمر ، بمقتضى كونه سبحانه هو الخالق . فهو الذي يحل ويحرم ، وهو الذي يضع للناس منهاج حياتهم ، وهو الذي يقول : هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح ، وبمقتضى كونه سبحانه هو اللطيف الخبير ، الحكيم العليم ، الذي يعلم ما يصلح للإنسان وما لا يصلح له .

وفي الميزان الرباني يوجد نوعان اثنان من الحكم : إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية :

---

[١] سورة يوسف [٣٩] .

[٢] سورة يوسف [٤٠] .

[٣] سورة الأعراف [٥٤] .

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [1]

ومن ثم فكل حكم غير حكم الله فهو حكم جاهلية . والديمقراطية حيث إنها ليست حكم الله فهي في ميزان الله جاهلية ..

ونعلم أن كثيرا من الناس سيصيحون عجباً واستنكاراً أن توصف الديمقراطية بأنها حكم جاهلي ؛ وليس العلمانيون وحدهم هم الذين سيستنكرون في هذه المرة ، بل كثير من " الإسلاميين " كذلك !

ونسارع فنقول لهؤلاء إننا حين نضع الديمقراطية في ميزان الله الحق ، فنَصِفُها بأنها حكم جاهلي ، فليس البديل الذي ندعو إليه هو الدكتاتورية ، كما يتبادر إلى أذهان الذين تشبعوا بالغزو الفكري ، فلم يعد لهم ميزان يزنون به الأمور ، إنما صار ميزانهم هو ميزان أوربا ، بدعوى أنه ميزان عالمي لا يخص أوربا وحدها ، وإنما يشمل البشر جميعا !

إنما البديل الذي ندعو إليه هو الإسلام .. هو المنهج الرباني الذي أنزله الله ليصلح به الأرض ويصونها من الفساد :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [2]

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) [3]

وحين نقوّم الديمقراطية في الميزان الرباني فهناك معياران أساسيان . المعيار الأول من المعبود في هذا النظام (ويدخل في هذه القضية بالضرورة : من المشرع ؟) والمعيار الثاني : مدى تحقق إنسانية الإنسان في ذلك النظام .

---

[1] سورة المائدة [٥٠] .

[2] سورة الروم [٣٠] .

[3] سورة المائدة [٣] .

وللعلمانية دعوى عريضة في أنها لا تعارض الدين . إنما هي تحصره في دائرة الاعتقاد والعبادة ، وتمنعه من الهيمنة على عالم السياسة ، فتجعل " الأمة " هي مصدر السلطات ، وهي التي من حقها التشريع .

وهذا – في الإسلام – ليس له اسم إلا الجاهلية !

فالجذور الثلاثة الرئيسية للجاهلية هي اعتقاد وجود آلهة مع الله (شرك الاعتقاد) وتوجيه شيء من العبادة لغير الله (شرك العبادة) والتشريع – أي التحليل والتحريم – من دون الله (شرك الاتباع) .

وحين تجعل الديمقراطية حق التشريع – أي التحليل والتحريم – " للأمة " من دون الله ، فهي تقع في أحد أنواع الشرك الرئيسية ، ومن ثم فهي جاهلية في ميزان الله .

والذين يهولهم أن توصف كل الحقوق والضمانات التي تحملها الديمقراطية للناس بأنها جاهلية نقول لهم : إن الإسلام لا يرفض تلك الحقوق والضمانات في عمومها ، ولا يرفض أن يكون للفرد كرامة تمنع " الدولة " أو " الحاكم " من اعتقاله أو سجنه أو إهانته أو تعذيبه أو التضييق عليه لمجرد أنه يخالف الحاكم أو يعارضه .. فهذه الضمانات والحقوق كلها من صميم الإسلام ، والإسلام هو الذي منحها للبشر قبل أن تمنحهم إياها الديمقراطية بأكثر من ألف عام .. إنما الذي يرفضه الإسلام ويصر على رفضه هو إعطاء البشر – أي بشر – حق التشريع ابتداء ، أي حق التحليل والتحريم من دون الله ، وبما يخالف أوامر الله [١] ، وهذا – بالذات – هو الذي تصر الديمقراطية عليه ، وهو هو الذي يضع الديمقراطية في خانة الجاهلية ، على الرغم من كل ما تحمله للناس من حقوق وضمانات لا يعارضها الإسلام ، بل كان هو أول من منحها للبشرية كما سيجيء بيانه .

---

[١] أما الاجتهاد في حدود مقاصد الشريعة فمباح بشروطه المعروفة .

وحين يحكم الإسلام فلن يلغي الحقوق والضمانات التي منحها الله للبشر يوم أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ، إنما هو سيلغي فقط ألوان الفساد التي تعج بها الأرض في ظل الجاهلية المعاصرة ، وفي ظل كل جاهلية التاريخ .

* * *

المعيار الثاني في هذه القضية هو مدى تحقق إنسانية الإنسان .

والبحث في إنسانية الإنسان يستلزم تحديد غاية وجوده في هذا الكون ، فمن الذي يحدد له غاية وجوده ؟ !

إنها في الحقيقة ذات القضية !

فإذا كان رد حق التشريع لله مبينا على كونه سبحانه هو الخالق ، وهو اللطيف الخبير :

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [١]

(أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [٢]

فكذلك حق تحديد غاية الوجود .. هو للخالق الذي أوجد ، وللطيف الخبير الذي يعلم .

وحين يستنكف الإنسان عن عبادة الله ويستكبر ، ويزعم أنه أدرى بغاية وجوده من خالقه ! وأدرى بالمنهج الذي يحقق غاية وجوده من اللطيف الخبير ، العليم الحكيم ، يحدث ما يحدث من الفساد في الأرض ..

فإذا عرضنا الديمقراطية على ميزان الإسلام في قضية تحقيق إنسانية الإنسان فماذا نرى ؟

نرى صفحتين مختلفتين ، إحداهما مشرقة شديدة الإشراق ، تلك هي صفحة الحقوق والضمانات التي تعطيها الديمقراطية للفرد ضد طغيان الدولة ، والأخرى سوداء حالكة السواد ،

---

[١] سورة الأعراف [٥٤] .

[٢] سورة الملك [١٤] .

هي إباحة الإلحاد بدعوى حرية العبادة ، وإباحة الفوضى الجنسية والأخلاقية بدعوى الحرية الشخصية ، وثمة صفحة ثالثة يختلط فيها السواد والبياض ، ظاهرها حقوق التمثيل السياسي وتشكيل الأحزاب وحرية الاجتماع والتعبير .. إلخ ، وباطنها سيطرة رأس المال ، ومن وراء ذلك سيطرة اليهود ..

ونضرب صفحا الآن عن الصفحة الثالثة ، وننظر إلى الصفحتين الأخريين ، ونسأل : إذا أنت منحت إنساناً ما ثوباً جميلاً نظيفاً رائع الجمال ، ثم دفعته إلى حفرة من الطين أو سمحت له بإلقاء نفسه في الحفرة ، وحرّمت على الآخرين أن يمنعوه من ذلك بدعوى أن هذه حريته الشخصية (!) فماذا تجد في النهاية – وقد حُفت هذه الحفرة بالشهوات – إلا أن تجد الناس في النهاية غرقى في الطين ؟ !

هل يكون الإنسان يومئذ قد حقق غاية وجوده ؟ !

ولا يقولن أحد : نأخذ الصفحة المشرقة وحدها ، ونترك الصفحة الحالكة ، لأننا عندئذ لن نكون ديمقراطيين ! لأنك إذا منعت الإلحاد بسلطة القانون ، ومنعت قذارة الفوضى الجنسية بسلطة التشريع ، فقد اعتديت على " الحرية الشخصية " وأصبحت .. يا للهول ! .. أصبحت أصوليا ! أصبحت إرهابيا ! .. أصبحت عدواً للديمقراطية ! !

* * *

ونعود الآن إلى الحقوق والضمانات .

يشكك العلمانيون في وجود تلك الحقوق والضمانات في الإسلام ، ويزعمون أن " الإسلاميين " إنما تعلموا الحديث عنها من ديمقراطية الغرب ، ثم ألصقوها بالإسلام زورا وبهتانا ، ليزعموا أن الإسلام يغنينا عن استيراد المبادئ والنظم من الغرب ..

وحين نقول لهم تعالوا إلى فترة الخلافة الراشدة ننظر في أحوالها ، ونستنبط الفكر السياسي منها يقولون : كلا ! لا تستشهدوا بفترة الخلافة الراشدة ، لأن واقع المسلمين بعد ذلك قد امتلأ بالجور والاستبداد .

وقد رددنا على ذلك من قبل ..

ونؤكد هنا مرة أخرى أننا سنظل نستشهد بفترة الخلافة الراشدة من أجل الدلالة التي تحملها : دلالة أنها من صنع الإسلام لا من صنع أي عنصر آخر غير الإسلام ..

وإلا فمن أين جاءت ؟ !

ولنأخذ عمر رضي الله عنه على سبيل المثال .. كيف كان في الجاهلية ؟ وكيف صار في الإسلام ؟

كان في الجاهلية جبارا يفزع الناس بجبروته .. فصار ألين الناس في الإسلام مع شدته في الحق .

وخذ – فيما نحن بصدده – ذلك الحادث النموذج :

وقف عمر يخطب الناس في المسجد فقال : أيها الناس ! اسمعوا وأطيعوا ! فقال له سلمان الفارسي رضي الله عنه : لا سمع لك علينا اليوم ولا طاعة ! فلم يغضب ، ولم يحتقن قلبه غيظا من ذلك الذي يتحدى سلطانه – سلطان الخلافة – بل قال متسائلا : ولمه ؟ قال سلمان : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به ، وقد نالك برد واحد كما نال بقية المسلمين ، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد ! فلم يغضب عمر مرة أخرى ، بل نادى في المسجد : يا عبد الله ! فلم يجب أحد لأن كل الناس عبادٌ لله وهو لم يحدد أيهم يريد ! فقال : يا عبد الله بن عمر ! قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : نشدتك الله ! هذا البرد الذي ائتزرت به ، أهو بردك ؟ قال : نعم ! والتفت إلى المسلمين يقول : إن أبي رجل طوال لا يكفيه البرد الذي ناله كبقية المسلمين ، فأعطيته بردي ليأتزر به ! قال سلمان : الآن مر ! نسمع ونطع !

من أين جاء هذا النموذج الفذ ؟ هل له مصدر غير الإسلام ؟

ولننظر في تاريخ الديمقراطية كله .. هل حوى نموذجا في روعة ذلك النموذج ؟

الإسلام إذن هو أبو " الحقوق السياسية للأمة " التي تمنح الأمة حق مساءلة الحاكم على الصغيرة والكبيرة ، وتعلق طاعة الحاكم على طاعته هو لله ورسوله ..

ولنأخذ من سيرة عمر رضي الله عنه ذلك النموذج الآخر :

قام عمر يوما يخطب الناس فقال : أيها الناس ! إن أحسنت فأعينوني ، وإن رأيتم فيّ اعوجاجا فقوّموني !

أرأيت ! إنه يحرض الناس على مراجعته وتقويمه ، ولا ينتظر حتى يقوموا هم بذلك فيذعن لهم ، وهو أقصى ما حققته الديمقراطية في عالم الواقع .. ولكن الحادث الفذ لا ينتهي هنا ، وهو في ذاته رائع .. إنما يمتد وراء ذلك ..

قال سلمان رضي الله عنه : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف !

فيقول عمر رضي الله عنه : الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوّمه بحد سيفه ! !

سيقولون : حادث فذ لا يتكرر .. ولم يتكرر ..

نقول نعم ! ولكن من صنعه ؟ أثمة شيء غير الإسلام ؟

وأنتم تقولون إن الديمقراطية تمنح الناس مثل هذه الحقوق ، ويمارسها الناس هناك .

ونتغاضى الآن عن جملة من الحقائق التي يدركها كل باحث في الديمقراطية الرأسمالية الغربية ، وهي أن هذه الحريات كلها تتلاشى حين تُمسُّ مصالح الرأسمالية أو تصطدم بالنفوذ اليهودي . ويكفي للدلالة على ذلك مقتل كنيدي عام ١٩٦٣ حين اصطدمت سياسته بالمصالح اليهودية ، كما يكفي للدلالة سحب درجتين جامعيتين واحدة في فرنسا والثانية في أمريكا ، وتنزيل صاحبيهما في استدرار عطف العالم وجره إلى الموافقة بل الترحيب – بسلب حقوق العرب في فلسطين !

نتغاضى الآن عن ذلك ، ونقول للعلمانيين : أنتم تقولون إن الديمقراطية تمنح الناس هذه الحقوق وتربيهم عليها ، فما الذي يمنع إذن من تربية الناس عليها في الإسلام ، وهي نتاج إسلامي أصيل مارسه المسلمون قبل بزوغ الديمقراطية بأكثر من ألف عام ؟ !

هل يمنعنا الواقع الإسلامي التاريخي الذي فرط في الحقوق الربانية ؛ ووقع فيه الاستبداد ؟

ولماذا يمنعنا ؟

ألستم تنادون بدعوة جديدة وحياة جديدة ومثل جديدة في ظل الديمقراطية ؟

ونحن ندعو بدعوة ليست جديدة ! دعوة " رجعية " جدا .. تعود إلى عهد الخلافة الراشدة ! ونقول للناس : ارجعوا إليها !

فإذا أمكن تحقيق دعوتكم في ظل العلمانية ، فلماذا لا يمكن تحقيق دعوتنا في ظل الإسلام ؟ !

* * *

يقولون في دعاواهم إن الإسلام بطبيعته " أحادي النظرة " لا يقبل إلا وجهة نظر واحدة ، ولا يحترم وجود " الآخر " ولا " الرأي الآخر " ، ويتهم المعارضين بأنهم خارجون على الدين ، فيتعسف في معاملتهم !

وإنه نظام لا يسمح بقيام الأحزاب ولا يسمح بتداول الحكم ..

وإنه نظام " شمولي " يمهد بطبيعته للاستبداد السياسي !

أما الدعوى الأولى فليس أكذب منها على التاريخ !

إن علماء المسلمين هم الذين علموا العالم كيف يختلف الناس دون أن يقوم بينهم شجار ، ولا عداوة ، ولا بغضاء !

كان العالم منهم يقول : قولنا صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب ! أي روح علمية ، وأية رحابة صدر أعظم من ذلك ؟ !

إن العالم منهم لا يلقي كلامه على عواهنه ، وإنما يستدل بالدليل ، ويكد ذهنه لينضبط كلامه بالضوابط الشرعية ، ومع ذلك يحتاط – لله – فيقول إنه يعتقد أنه على صواب ولكنه لا يقطع بذلك خشية أن يكون الحق مخالفاً لقوله فلا يكون قد أدى الأمانة لله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ..) [١] .

وذلك تجرد للحقيقة وللبحث العلمي لا يتصور أروع منه .. فمن قال إن الإسلام لا يقبل إلا وجهة نظر واحدة ، ولا يحترم " الآخر " ولا الرأي " الرأي " ؟ !

وكيف نشأت المذاهب إذن ؟ وكيف اختلفت الاجتهادات ؟ وكيف نشأ في الفقه علم يسمى " علم الخلاف " ؟ !

ولكن العلمانيين يقصدون شيئا آخر ، سواء جهروا به أم لم يجهروا .. وبعضهم يجهر بالفعل!

إنهم يريدون أن يكون " الدين " وجهة نظر ! إحدى وجهات النظر المعروضة في الساحة ! وهناك – معه – وجهة نظر أخرى ، ورأي آخر .. والإنسان حر .. يأخذ " بوجهة نظر الدين " أو بوجهة النظر الأخرى .. وحبذا – لكي يكون حرّ الفكر – أن يأخذ بوجهة النظر الأخرى وينبذ وجهة نظر الدين .. بغير تحريج على عمله هذا ولا تأثيم !

هذه هي القضية في حقيقتها .. يجهر بها بعضهم أحيانا ، ويغلفها الآخرون بغلاف لا يخفى حقيقتها !

يا للغزو الفكري .. كم تمكن من تلك القلوب !

---

[١] سورة النساء [١٣٥] .

إن تجربة أوربا مع دينها هي التي أدت بها إلى هذا الوضع المقلوب .

فقد وثقت أوربا في دينها المزيف ثقة عمياء ، على أساس أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وكانت لذلك الدين قداسة في نفوسهم ، ولرجاله احترام وتوقير يصلان إلى حد التقديس بالنسبة " لقداسة البابا " وينزل سفلا حتى يصل جزء منه إلى " راعي الأبرشية " [١] وهو أصغر رجالهم قدراً وأصغرهم سناً !

ثم رويداً رويداً اكتشفت أوربا أنها كانت مخدوعة خديعة كبرى برجال الدين أولا ثم بالدين ذاته أخيرا !

وزاد الأمر سوءاً حين قامت الكنيسة تحرّق العلماء وتعذبهم لأنهم نادوا بأراء ونظريات علمية ثبتت صحتها بعد ذلك ، وثبت أن ما كانت تقوله الكنيسة في حقها غير صحيح ..

عندئذ بدأ الناس – الأحرار الفكر – يشكّون في كل ما تقوله الكنيسة ، وكل ما يأتي من قِبَل الدين ..

لم يعد الدين حقائق نهائية كما كان في حس الناس من قبل ، إنما أصبح وجهة نظر وأصبح معها وجهات نظر أخرى يؤكد العلم ، وتؤكد التجربة ، وتشير دلائل كثيرة أنها أولى بالاعتبار من وجهة النظر التي يدلي بها رجال الدين .. فعندئذ لم يقف الأمر عند أن يكون الدين وجهة نظر .. مجرد وجهة نظر .. إنما أصبح هو وجهة النظر الأخف وزنا والأضعف أدلة .. وانتهى به الأمر أن يكون هو وجهة النظر المنبوذة ، التي تذكر للتنديد بها ، والسخرية بقائليها ، وبيان ضعفها وفجاجتها ، ثم العدول عنها إلى " وجهة النظر الأخرى " !

هذه الصورة التي لها ما يفسرها في التجربة الأوربية ، والتي سببها تزييف الدين الذي عرفته أوربا وتحريفه .. يحب العلمانيون ألا يفوتهم " شرفها " و " وجاهتها " ! فيطبقونها – ويدعون إلى تطبيقها – على الدين الحق الذي شهدت له السموات والأرض ومن فيهن !

---

[١] هو كاهن القرية الصغيرة ، وهو في أول السلم الكهنوتي ، وقد يبقى هناك حياته كلها ، أو يسعفه الحظ فيرقّى .

يريدون – بحجة الديمقراطية ، أو بأي حجة أخرى – أن يحولوا كلام الله الحق إلى وجهة نظر ! ثم يحولوه – بالمواظبة – إلى وجهة نظر منبوذة لا يؤخذ بها ، بل يعدل عنها إلى " وجهة النظر الاخرى " !

وعندئذ يكونون قد بلغوا مرامهم من هدم هذا الدين ..

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [١]

مرحبا بالرأي والرأي الآخر حين يكون بين بشر وبشر .. فليس من حق بشر أن يدعي العصمة لنفسه ولكلامه ، ويهمل كلام الآخرين لمجرد أنهم يخالفونه في الرأي .. إنما الدليل هو الذي يقرر أي الرأيين أقرب إلى الصواب .

أما حين يكون الأمر بين كلام الله وكلام البشر ، فمن ذا الذي يبلغ به التبجح أن يقول إنه أعلم من الله ، وإن كلام الله لا يلزمه لأنه مجرد وجهة نظر ؟ !

(مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [٢]

وويح للذين يخنسون ويبتلعون آراءهم في جوفهم إذا تكلم رئيس دولة من طغاة الأرض ، فإذا ذكر كلام الله لَوَّوْا رءوسهم وقالوا : هذه وجهة نظر الدين .. أما نحن فلنا وجهة نظر مختلفة !

وهل فعل الشيطان غير ذلك حين استحق اللعنة الأبدية من الله ؟ !

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) [٣]

---

[١] سورة الصف [٨ – ٩] .

[٢] سورة الأحزاب [٣٦] .

[٣] سورة ص [٧٦ – ٧٨] .

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [١]

*　*　*

أما قضية قيام الأحزاب وتداول الحكم فهي صورة أخرى من صور تدني " الحس الإسلامي " في واقعنا المعاصر ، وتغلغل الغزو الفكري في حياتنا .. إن الحس الإسلامي يمنع " احتراف " التأييد واحتراف المعارضة ، اللذين تمارسهما الديمقراطية الحزبية في واقعها التطبيقي ، أياً كان الغطاء النظري أو " الأيديولوجي " الذي تتم هذه الممارسة تحته !

تتم الانتخابات ، فيتسلم الحكم الحزب الفائز ، فيجلس أعضاؤه في مقاعد التأييد ، وتجلس الأحزاب الأخرى في مقاعد المعارضة ! ويحترف الأولون التأييد للحكومة في قراراتها ولو كانوا غير مقتنعين بها ، ويحترف الآخرون المعارضة ولو كانوا مقتنعين بوجاهتها . ويحدث كثيرا أن يعارض قوم قرارا معينا وهم في مقاعد المعارضة ، فإذا جاءوا إلى الحكم أيدوا القرار ذاته إذا صدر عن حكومتهم ! أو العكس ! وأبرز الأمثلة على ذلك أن حزب العمال البريطاني يطالب – طالما كان في المعارضة – برفع أجور العمال وتخفيض ساعات العمل ، مما لا يوافق عليه حزب المحافظين الممثل لمصالح الرأسمالية .. فإذا جاء حزب العمال إلى الحكم رفض رفع الأجور وتخفيض ساعات العمل – أو عجز عن التنفيذ ! سيان ! – لأن ذلك يؤدي إلى التضخم من ناحية ، ويؤذي مصالح الرأسمالية من جهة أخرى ، وهي الحاكم الحقيقي من وراء لعبة تداول الحكم وتعدد الأحزاب ! !

أفيراد تمثيل هذه اللعبة في الإسلام لنكون حضاريين ، ونكون تقدميين ، ونكون عصريين ؟ !

---

[١] سورة غافر [٥٦] .

إن المسلم لا يحترف التأييد ولا يحترف المعارضة ، إنما يدور مع الحق حيث دار .. وقد يخطئ اجتهاده ، ويغيب عنه وجه المصلحة فيحسبه هنا وهو هناك .. ولا حرج في ذلك ، وله أن ينادي بما يعتقد أنه حق ، لا تعصباً لرأيه ، وله أن يغيّر رأيه – بلا حرج – إذا تبين له أن اجتهاد غيره أصوب ، كالخلاف الذي وقع بين عمر وبلال رضي الله عنهما في مسألة الفيء ، فرأى عمر رضي الله عنه رأيا فعارضه بلال رضي الله عنه ، وأصر زمناً على معارضته ، حتى صار عمر رضي الله عنه يدعو فيقول : اللهم اكفني بلالا وأصحابه ! وفي الأخير فاء بلال رضي الله عنه إلى رأي عمر ، فغيّر موقفه من المسألة بغير حرج حين اقتنع بأن اجتهاد عمر أصوب من اجتهاده ..

هكذا تجري الأمور في الشورى الأسلامية .. فهل يستلزم هذا قيام أحزاب ثابتة متعددة تحترف التأييد تارة والمعارضة تارة حسب موقعها من كراسي الحكم ؟ !

إنني لا " أفتي " في هذه القضية ، وأترك أمر الفتوى للفقهاء .. وإن كنت أرى أنه من العبث مجادلة العلمانيين في هذا الأمر في الوقت الحاضر ، ولكني أبين فقط كم اجْتَرَفَنَا الغزو الفكري ، فأصبحنا لا نرى الأمور إلا بمنظار الغرب ، الذي تشكل في ظروف تاريخية معينة ، ليرى الأمور على صورة معينة ، قد لاتكون بالضرورة لازمة في ظروف أخرى وأوضاع مغايرة ..

أما تداول الحكم فما المقصود به ؟ !

إن من حق المسلمين أن يناقشوا حاكمهم ، ويردوه إلى الصواب إذا أخطأ ، ويغيروه إذا أصر على الخطأ ، بالطريقة التي اتفق عليها فقهاء السياسة الشرعية ..

أما أن يكون تداول الحكم أصلا من الأصول يطلب لذاته ، ويمارس فقط بغية " الوجاهة " و" العصرانية " فأمر لا تفسير له إلا الغزو الفكري الذي يلعب بالعقول !

والقضية على أي حال لها خبئ عند العلمانيين غير الظاهر الذي تناقش المسألة في إطاره ..

إن العلمـانيين يريـدون أن يقولـوا للإسـلاميين – وقـد قـالوا بالفعـل – تعهـدوا لنـا أيهـا الإسـلاميون أنكـم إذا وصـلتم إلـى الحكـم – رغـم كـل تضـييقاتنا علـيكم ، ومحاولتنـا مـنعكم مـن الوصـول إليـه – تعهدوا لنـا أن " تَسْقُطُوا " بعد فترة محددة ، وتسلمونا الحكم بعدكم ! وإلا فلن نوصلكم أبدا مهما حاولتم ، ولو استعملنا ضدكم الحديد والنار .. ولتذهب الديمقراطية يومئذ إلى الجحيم ! فإنما نحن لجأنا إلى الديمقراطية أملا في أنكم لن تصلوا عن طريقها أبداً إلى أغلبية شـعبية توصـلكم للحكـم ، أمـا وقـد ازداد خطـركم بحيـث يمكـن أن تصـلوا عـن طريـق صـناديق الانتخاب كما حدث في الجزائر .. فلتحترق الديمقراطية ولتذهب إلى أبد الآبدين !

نقول للعلمانيين إنه – من الوجهة النظرية البحتة – ليس هناك مانع أن يتغير عهد ويأتي عهد آخر .. ولكن العهد الأول والعهد الآخر لا بد أن يحكما كلاهما بشريعة الله ! لأنـه لا يتـأتى لمسلم أن يحكم الناس بشريعة غير شريعة الله ، فيقع في الشرك المخرج من الملـة ، ويقعون هم – إذا رضوا بذلك وتابعوه – في الشرك المخرج من الملة .

وقد لجأ العلمانيون في حواراتهم مع الإسلاميين إلى محاولـة إحراجهم ، فقالوا لهم أتقبلون الديمقراطية أساسا للحكم ؟ قالوا : نعم ! والإسلام أبو الديمقراطية ! فقالوا لهم : أتقبلون التعددية ؟ قالوا : نعم ! ولها أصل في الإسلام ! فقالوا ، وتقبلون تداول الحكم ؟ !

نقول للعلمانيين : إنه لا يوجد مسلم يملك أن يوافق على حكم يحكم بغير ما أنزل الله ، ولا أن يتعهد بالموافقة على ذلك ، لأنه يخرج بذلك من الإسلام .

إنما يخضـع المسلمون اليوم لحكومات تحكمهم قهراً بغير ما أنزل الله لأنهم مستضـعفون في الأرض ، في ظل السيطرة الصليبية الصهيونية على الأرض اليوم ..

أما أن يوافقوا .. أما أن يرضوا .. فدون ذلك نار جهنم والعياذ بالله ..

بقيت دعوى الشمولية ، والخوف من الاستبداد إذا وصلت إحدى الجماعات الإسلامية اليوم إلى الحكم .

وأنا شخصياً لا أحبذ أن تسعى أي جماعة من الجماعات الإسلامية القائمة اليوم إلى الحكم قبل أن تستكمل تربية ذاتها على الشورى الإسلامية الحقيقية ، التي ضرب لنا الخلفاء الراشدون نماذج منها .. حتى إذا وصلوا إلى الحكم ذات يوم كانوا صورة صادقة للحكومة الإسلامية الراشدة ، لا تكرارا لصور الاستبداد التي وقعت من قبل في حياة المسلمين .

ولكن ما قول العلمانيين في أن يتولوا هم الحكم – وقد تشبعوا بالروح الديمقراطية وتربوا على احترام الآخر ، وإفساح الصدر للرأي الآخر – بشريطة أن يحكموا بما أنزل الله .. وسنكون نحن يومئذ أول المؤيدين ، وأول المناصرين ؟ !

أم إن هذا – بالذات – هو المحظور ؟ ! !

من الوقائع المضحكة التي وقعت في السجن الحربي – وشر البلية ما يضحك كما يقول صلى الله عليه وسلم – أن التحقيق كان يجري مع أحد الإخوان ، وهو معلق من يديه ورجليه ، والسياط تهوي عليه من كل جانب ، فقال له المحقق الذي يتولى تعذيبه : " ... وعلى ذلك فقد رحت تقرأ كتب سيد قطب ، وتقول منها للناس ؟ ! " فظن المسكين في حرارة الضرب أن التهمة الموجهة إليه هي ترديد كلام سيد قطب ! فراح ينفي التهمة بشدة ! قال : " أنا لا أقول من كلام سيد قطب ! " فتوقف الرجل عن التعذيب لحظة وسأله : " من أين تقول إذن ؟ ! " قال : " أنا أقول من القرآن ! " عندئذ عاد الرجل يهوي بالسياط على بدنه أشد من الأول ، وقال له حانقا : " يا ابن ال .. ! ومن أين يقول سيد قطب ؟ أليس يقول من القرآن " ؟ ! !

وعلم المسكين أن التهمة الحقيقية لم تكن ترديد كلام سيد قطب .. إنما كانت ترديد كلام الله !

لحساب من يُحارَب الإسلام ؟ !

الحرب المحمومة التي تشن على الإسلام اليوم أوضح من أن يجادل فيها مجادل ..

حرب عالمية في كل مكان في الأرض .. في البوسنة والهرسك .. في طاجستان .. في الهند .. في كشمير .. في الفلبين .. في بورما .. في تركستان .. في فلسطين .. فضلا عما يجري في داخل العالم الإسلامي ذاته من ملاحقة للحركات الإسلامية وتشريد لأصحابها وسجن واعتقال وتعذيب ..

ولن نتعرض هنا إلا لعنصر واحد من هذه الحرب الشاملة التي تستخدم فيها كل الوسائل ، ذلك هو الهجوم العلماني العنيف المتلاحق في وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفاز وندوات ومحاضرات وتصريحات ولقاءات ..

ونستثني من هذه الحملة الإعلامية ما كان موجها ضد " الإرهاب " فلا نتكلم عنه في هذا المجال ، فقد يجد القائمون بالحملة ستاراً لحملتهم ، فيقولون إنهم يحاربون الإرهاب ولا يحاربون الإسلام ..

إنما نتحدث فقط عن الحملات الموجهة ضد الإسلام ذاته ، وبالذات ضد تحكيم الشريعة .. ونتساءل : لحساب مَنْ تشن تلك الحملات ؟ !

* * *

حين جاء الغزو الصليبي للعالم الإسلامي كان أول همٍّ له بعد استيلائه على أي بلد من بلاد المسلمين هو تنحية الشريعة .

ولا عجب في ذلك إذا أدركنا أنه غزو صليبي ..

ويجب أن نفرق ابتداء بين ما سمي " استعماراً " [١] – أي الاحتلال العسكري لبلد من البلاد وإخضاعها للدولة الغازية – وبين ما جرى في البلاد الإسلامية خاصة ، وهو شيء مختلف تماما ، وإن أريدَ إيهامنا أنه كله من نوع واحد ، وأنه كله داخل تحت عنوان " الاستعمار " وأن الهدف منه جميعا كان الاستغلال الاقتصادي للبلاد المغلوبة على أمرها ، وليس وراء ذلك هدف آخر !

كلا .. ليسا نوعاً واحداً ، وإن كان الاستغلال الاقتصادي من الأهداف الرئيسية في كلا النوعين ..

ففي البلاد غير الإسلامية التي أغار عليها " الاستعمار " لم يتعرض الاستعمار لعقائد أهلها ولا عاداتهم . لم يتعرض للهندوكية في الهند ، ولا البوذية في جنوب شرق آسيا ، ولا للوثنية في أفريقيا ..

أما في البلاد الإسلامية فكان الأمر على خلاف ذلك .. كانت هناك حرب شرسة ضد الإسلام ، توجهت أول ما توجهت إلى تنحية الشريعة الإسلامية ، وفرض القانون الوضعي بالحديد والنار ، ثم توجهت إلى معاهد التعليم الإسلامي لإغلاقها او قهرها على تغيير برامجها الدينية ، ثم توجهت إلى محاولة تغيير عادات الناس وتقاليدهم بشتى الوسائل التي استخدمها " الغزو الفكري " في مناهج التعليم ووسائل الإعلام .. وقامت مدارس التنصير بدورها في تلك الحرب الشرسة على مبدئهم الشهير : " بطيء ولكنه أكيد المفعول " [٢]

لماذا كان ذلك الفارق بين " الاستعمار " في البلاد غير الإسلامية ، وبين " الغزو الصليبي " في بلاد الإسلام ؟

---

[١] لا أدري من الذي بدأ استخدام كلمة " الاستعمار " ترجمة لكلمة Colonisation التي تعني الاحتلال ولكني أرجح أنهم ذات المترجمين الأرمن واللبنانيين الذين كان الغزو الصليبي يستخدمهم في البلاد الإسلامية ، والذين ترجموا لفظة Secularism بالعلمانية للإيهام بأن لها صلة بالعلم !

[٢] سنتكلم بشيء من التفصيل عن هذه الوسائل فيما يلي من الفصل .

الفارق أنه لا عداء بينهم وبين الوثنية بأشكالها المختلفة ، هندوكية أو بوذية أو إفريقية ، بينما العداء قائم بينهم وبين الإسلام : " وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ " [١]

والفارق أن العقائد الوثنية لا خوف منها على وجود المستعمر ، ولكن خطر الإسلام كامن في عقيدته التي تحث المسلمين على الجهاد ، وتمنعهم من الاستكانة إلى أعداء دينهم . وأن الإسلام ليس ديناً منفصلاً عن واقع الحياة يُمَارَسُ ساعة من النهار ثم تجري الحياة بعيدة عنه بقية اليوم .. إنما هو ضارب بجذوره في كل تفصيلات الحياة ودقائقها ، فهو ما يفتأ يذكّر المسلمين في كل لحظة ، وكل عمل ، وكل شعور ، وكل فكر ، أن هؤلاء الغزاة ليسوا منهم ، ولا يمكن أن يكونوا منهم في يوم من الأيام ، إنما هم غزاة كفار يجب أن يُجْلَوْا من أرض الإسلام ..

والفارق أخيراً أن الوثنيين قد يتقبلون النصرانية لأنهم لا يملكون عقيدة حقيقية يمكن أن تقف في وجهها . أما المسلمون الذين يشعرون أن عقيدتهم أسمى وأشمل وأصح فإنهم لن يقبلوا النصرانية ، وسيقفون وقفة صلدة أمام محاولات التنصير ..

هل نعجب إذن من بدئهم حملتهم ضد الإسلام بتنحية الشريعة الإسلامية ؟

إن كانوا يريدون تنصير المسلمين – وقد حاولوا ذلك في مبدإ الأمر حتى يئسوا [٢] – فهل يمكن ذلك في وجود الشريعة التي تطبق حد الردة على المرتد الذي يبدل دينه [٣] ؟

وإن كانوا يريدون نشر الفاحشة – وقد أرادوا ذلك وفعلوه [٤] – فهل يمكن ذلك في وجود الشريعة التي تطبق حد الزنا ؟

---

[١] سورة البقرة [١٢٠] .

[٢] سيأتي كلام الأب زويمر في هذا الشأن .

[٣] قال – صلى الله عليه وسلم – : " لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " أخرجه الشيخان .

[٤] وصل الأمر إلى فتح بيوت للدعارة الرسمية ، وتنصيب الدولة " المسلمة ! " راعياً لها ، وحارساً عليها !

وإن كانوا يريدون نشر الخمر والتعالن بها – وقد أرادوا ذلك وفعلوه [١] – فهل يمكن ذلك في وجود الشريعة التي تطبق حد الخمر ؟

وإن كانوا يريدون إغراء المرأة بخلع حجابها ، وخروجها بعد ذلك سافرة ، كاسية عارية ، فضلا عن تجريدها من حيائها الفطري على الشواطئ التي تختلط فيها كتل اللحم العريان – وقد أرادوا ذلك وفعلوه – فهل يمكن أن يحدث ذلك في وجود الشريعة التي تعاقب على هذه الأمور كلها عقوبات رادعة ؟

وإن كانوا يريدون إزالة الحاجز النفسي الذي يجعل المسلم يحس دائما بالاختلاف والتميز بينه وبين الغازي الصليبي ، بحيث لا ينسجمان ولا يندمجان ولا تزول العداوة بينهما – وقد أرادوا ذلك وفعلوه – فهل يمكن ذلك إذا بقي للمسلم نظامه الخاص في التحاكم وفي التعامل ، يفيء إليه مستعليا بإيمانه على من لا يدين بالدين الصحيح ؟

من كل الجوانب إذن كان لا بد للغازي الصليبي أن يبدأ عمله – بعد استتباب أوضاعه العسكرية – بتنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ..

ولكن هذه الخطوة وحدها لم تكن لتكفي ..

فما الذي يمنع المسلمين من محاولة العودة إلى الشريعة ، بعد أن تزول عنهم وهلة الهزيمة العسكرية ، فيبدءوا الجهاد من جديد لإخراج الغازي الصليبي ، وإعادة الشريعة إلى مكانها من الحكم ، ومكانتها من القلوب ؟ !

لا بد من صرفهم – من داخل أنفسهم – عن تلك المحاولة الخطيرة .. التي يمكن أن تفسد كل مخطط الأعداء .

بل لا يكفي صرفهم فحسب .. فلربما يعودون !

---

[١] أعطيت التصاريح الرسمية لفتح حانات الخمر ، وكتب عليها " مشروبات روحية ! " ترجمةً لكلمة Spiritual بمعنى كحولية ! على نفس الطريقة التي أصبح الاحتلال بها " استعمارا " واللادينية " علمانية " ! ! .

لا بد من تنفيرهم من الشريعة بحيث لا يفكرون في العودة أبدا ، ويحمدون ربهم – أو يحمدون شيطانهم – أنهم تخلصوا من تلك الشريعة إلى غير عودة ..

وذلك الذي خطط له الغزو الصليبي عن طريق " الغزو الفكري " بدءاً بمناهج التعليم ، ومروراً بوسائل الإعلام .

وضعت مناهج تعليمية " علمانية " بدلا من المناهج الدينية التي كانت تعلم الناس أن الإسلام هو الأصل في حياة المسلمين ، وأنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ..

وحقيقة أن " التعليم الديني " الذي كان قائما يومئذ لم يكن هو الصورة الصحيحة للتعليم الديني كما ينبغي أن يكون ، ولم يكن يخرّج المسلم الحق الذي يعرف حقيقة دينه ويمارسه على وعي وبصيرة ، كما أنه كان خلوا من العلوم الكونية التي كانت تشكل جزءا أساسيا منه يوم كان المسلمون في الأندلس وغيرها من بلاد الإسلام هم المتعلمين حقاً في الأرض ، وهم سادة الأرض ..

صحيح ذلك .. ولكن الغزو الصليبي الذي أغلق المعاهد الدينية أو جفف منابعها أو تركها قائمة ولكن شبه مهجورة ، وحوّل مجرى التعليم بعيدا عنها كما فعل الاحتلال البريطاني في مصر تجاه الأزهر [١] ، لم يفعل ذلك من أجل تصحيح مسار التعليم وجعله أداة مفيدة للأمة تخرجها من تخلفها وضعفها إلى القوة والتقدم .. بل فعل ذلك بدافع من الحقد الصليبي ، للقضاء على الصبغة الدينية التي تميز المسلمين ، ودفع المسلمين دفعا في تيار التغريب الذي تَنْبَهِمُ فيه شخصيتهم ويؤدي بهم إلى الضياع وإن تعلموا من العلم بعض القشور ..

وفي تلك المناهج العلمانية لم يكن هناك مجال للعلوم الشرعية ، ولكن هناك حصة دين بائسة توضع في آخر الجدول المدرسي ، والتلاميذ يتثاءبون من رغبة النعاس وإجهاد الدراسة اليوم بطوله ، وينتظرون دق الجرس لينفلتوا من القيد ، ويخرجوا إلى الطريق . ويندب لها من

---

[١] اقرأ إن شئت فصل الغزو الفكري من كتاب " واقعنا المعاصر " .

المدرسين أكبرهم سنا وأعجزهم عن النشاط والحركة وأدناهم إلى الفناء . والدرس ذاته عبارة عن نصوص تستظهر دون اهتمام بشرح معانيها وإحيائها في القلوب لتحريك الوجدان الديني في نفوس التلاميذ وربط قلوبهم بالله سبحانه وتعالى برباط متين .. ولن تكون نتيجة ذلك الدرس تعلق الضغار بدينهم ، بل الأحرى تنفيرهم منه وإبعادهم عنه ..

وفي درس التاريخ الإسلامي بالذات جرعة أخرى من السم تبعد الدارسين عن الإسلام وتلوي أعناقهم إلى الغرب ثم تستعبدهم له .. فبعد دراسة البعثة المحمدية يختصر التاريخ الإسلامي إلى جانبه السياسي وحده – وهو الذي وقع فيه أشد الانحراف في حياة المسلمين – ويطمس على الجانب العقدي ، والجانب الحضاري ، والجانب العلمي ، والجانب الاجتماعي ، وكيف فتح المسلمون البلاد لا للاستغلال الاقتصادي أو شهوة الغلبة والفتح ولكن لنشر الدعوة وإزالة الجهالة وتحويل البلاد إلى الأخوّة الإيمانية والسماحة الدينية .. وكأن تاريخ المسلمين كله لم يكن إلا صراعات على الحكم وشهوة السلطان ! فإذا فُرِّغَ التاريخ الإسلامي من محتواه المشرق الحي ، وركز على انحرافات ذلك التاريخ وحدها ، وُجِّه الطلاب إلى تاريخ أوربا .. فركِّز على التقدم العلمي والحضاري وعلى الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وطمس على الاستعمار وجرائمه البشعة ، وإذلال الشعوب واستلاب خيراتها ، وطمس على التحلل الخلقي والروح المادية الصلدة والفساد العقدي وتقطع روابط الأسرة والمجتمع .. فتكون نتيجة تلك الدراسة بذر بذور النفور من التاريخ الإسلامي ، وعدم التعلق بأمجاده ، وعدم الاعتزاز به ، والتوجه في الوقت ذاته إلى الغرب والتعلق به ومحاولة اللحاق به ، أو بالأحرى اللهاث وراءه ..

وحقيقة أن واقع المسلمين في الفترة التي جاء فيها الغزو الصليبي كانت سيئة غاية السوء في جميع المجالات ، وأن حال أوربا الظاهر كان هو الغلبة والقوة والتقدم العلمي والمادي .. ولكن المنهج الذي كان يمكن أن يدرس به التاريخ – لو أن واضعه كان مسلماً معتداً بدينه ، ملتزماً بالحقيقة العلمية في الوقت ذاته أمانة لله – هو أن يعرض الحقيقة كاملة من جانبيها ، الجانب الإسلامي والجانب الغربي ، فيعرض صفحة الإسلام المشرقة وفي داخلها خط الانحراف

في حجمه الحقيقي ، وشتان بين هذا وبين إخفاء الوجه المشرق كله وإبراز خط الانحراف وحده كأنه هو التاريخ ؛ ثم عرض الواقع الإسلامي المعاصر على حقيقته مع بيان أن السبب الأساسي في تدهور حال المسلمين هو بعدهم عن حقيقة الإسلام ، وتحول الإسلام في حياتهم إلى تقاليد خاوية من الروح ، وأداء آلي للشعائر التعبدية دون تطبيق للمعاني السامية للإسلام في كل المجالات ، مع الانصراف عما أمر به الإسلام من عمارة الأرض وامتلاك أسباب القوة والحرص على العلم .. أما بالنسبة لأوربا فتعرض جملة الحقائق التاريخية التالية : أن أوربا عاشت فترة عشرة قرون كاملة في ظلمات " القرون الوسطى المظلمة " عندها بسبب فساد دينها وطغيان كنيستها ، ثم لما احتكت بالمسلمين الذين كانوا في الفترة ذاتها في أوج تقدمهم وحضارتهم وتمكنهم في الأرض بسبب تمسكهم بدينهم الحق ، بدأت أوربا تخرج من الظلام ، وترجمت كتب العلوم الإسلامية فتعلمت ، ثم تابعت تقدمها ، فسيطرت وتمكنت بينما نسي المسلمون علومهم فتأخروا ، ولكن أوربا حين ملكت القوة استخدمتها في إذلال الشعوب الضعيفة وقهرها ونهب خيراتها ولم تستخدمها في رفع مستوى الشعوب وترقيتها كما فعل المسلمون في وقت قوتهم ، ولأنهم نبذوا الدين امتلأت حياتهم بالانحلال الخلقي والروح المادية الطاغية ..

ما أبعد تلك الصورة – التي كان يجب أن تكون محور تدريس التاريخ في المدارس – عن الصورة المقلوبة التي كان يدرس بها بالفعل ، مع أن تلك الصورة هي التي تحمل أكبر قدر من " الحقائق التاريخية " والتفسير الصحيح للتاريخ ، بينما الصورة التي كان يدرس بها بالفعل لم تشمل إلا بعض حقائق منتقاة بسوء قصد لإعطاء التأثير المسموم ، كما ينقصها التفسير الصحيح لوقائع التاريخ ، الذي يجعل للوقائع معنى تربويا يصحح بناء النفوس .

بل درّس في المدارس العلمانية ما هو أسوأ من ذلك !

درس للطلاب في درس الجغرافيا أن بلاد العالم الإسلامي متخلفة بسبب حرارة الجو التي تدعو إلى الكسل والخمول بينما الجو البارد في أوربا يبعث على النشاط والحركة . ومتخلفة لأنها زراعية لا يوجد فيها فحم ولا حديد ، بينما أوربا متقدمة لوجود الصناعة فيها بسبب وجود الفحم

والحديد ! ومؤدى ذلك أن التخلف لعنة أبدية مكتوبة على العالم الإسلامي ، بسبب ظروف قاهرة لا يد للإنسان فيها مهما حاول ! جو حار ، ولا فحم ولا حديد ! بينما التقدم العلمي والصناعي والحضاري نصيب أزلي مقسوم لأوربا بسبب جوها البارد ووجود الفحم والحديد فيها ! وكأنما تلك البلاد الحارة لم تكن يوما من الأيام مهد حضارة ملأت أرجاء الأرض ، ولم يكن أهلها هم الناشطين الذين يتحركون لكشف مجاهل الأرض ونشر الهدى والنور في أرجائها ، بينما كانت أوربا بجوها البارد وفحمها وحديدها غارقة في الظلام !

ثم .. لما كبر التلاميذ ، وصاروا طلابا في المدارس الثانوية وفي التعليم العالي درّس لهم ما هو أسوأ من ذلك !

درس لهم أن أوربا كانت تعيش في الظلمات بسبب سيطرة الدين على حياتها ، وأنها لم تتقدم ولم تتحضر إلا بعد أن نبذت دينها .. وأن الواقع السيىء الذي يعيشه المسلمون اليوم هو بسبب الدين الذي يتمثل فيه الجهل والخرافة ، وأنهم لن يتقدموا ويتحضروا إلا حين يفعلون كما فعلت أوربا ، فينبذون دينهم ، ويتحررون من أغلاله ..

وما أصدق المقولة الأولى ، وما أكذب الثانية !

أوربا كانت في ظلام بسبب دينها .. نعم . ولما نبذت " ذلك الدين " تقدمت وتحضرت .. نعم

أما المسلمون – على عكس ذلك تماما – فإن وقت تمسكهم بدينهم هو وقت عزتهم ووقت قوتهم ، ووقت عملهم وحضارتهم وتقدمهم . أما وقت انتكاسهم وانحسارهم وضعفهم وتخلفهم فهو وقت عدم تمسكهم بحقيقة دينهم ، وإن تمسكوا بأوهام ليست منه في حقيقة الأمر ، حسبوها هي الدين .

والفرق بين الحالين هو الفرق بين الدينين .. أحدهما زائف محرف ، والآخر هو الدين الحق كما أنزل من عند الله بلا تحريف . فمن تمسك بالأول ضل وتقهقر ، ومن تمسك بالآخر على حقيقته نال خير الدنيا والآخرة .

ولكن الذي درس للطلاب سواء بالإيحاء أو بالطريق المباشر لم يكن مقصوداً به وجه الحق .. إنما كان المقصود به هو التضليل ، وإبعاد المسلمين عن الإسلام من كل سبيل ..

ويجيء في هذا الصدد كلام الأب زويمر [١] في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥ م ، حيث كان عدد من المنصرين قد شكا من الفشل الذريع في تنصير المسلمين على الرغم من كل الجهود المبذولة في ذلك ، فرد عليهم زويمر مبينا أن الهدف ليس تنصير المسلمين [٢] ، وإنما هو صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، وإن المنصرين نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً ، بفضل المدارس التنصيرية ، ومناهج التعليم التي وضعها المنصرون للبلاد الإسلامية ! ! [٣]

ولم يكتف الغزو الصليبي بكل السموم الي وضعها في مناهج التعليم ، وما كان له أن يكتفي ! فلا بد من إحكام التخطيط ، وإحكام التنفيذ ، حتى لا تترك ثغرة يعود المسلمون من طريقها إلى الإسلام !

كان المطلوب إحداث نمط حياة كامل مغاير للصورة الإسلامية ، وتحويله إلى " أمر واقع " يضغط بثقله على الأعصاب والأفكار والأرواح والعقول ، فيبعدها عن الإسلام ، ويصبح الإسلام إلى جانبها أشباحاً غامضة ، أو أحلاما هائمة ، غير قابلة للتطبيق في دنيا الواقع .. بل يصبح نمط الحياة الجديد في حس الناس هو الأصل ، ويصبح الإسلام إلى جانبه شيئاً مضاداً .. شيئا غير مرغوب فيه ، لأنه يتصادم مع الواقع الجديد ، ويفسد " رونقه " و "بهاءه " الوهميين اللذين لمعتهما وسائل الإعلام بكل وسائل التضليل ..

---

[١] هو الدكتور صمويل زويمر من أخطر المنصرين الذين عملوا في الساحة الإسلامية ، مات في الخامسة والثمانين من عمره عام ١٩٥٢ م ، وكان " بروتستانتيا " ولكنه أوصى أن يدفن في مدافن اليهود ! !

[٢] كذب زويمر في هذه . ويشهد على كذبه كتاب " الغارة على العالم الإسلامي " تأليف أ . شاتلييه (تعريب محب الدين الخطيب) فقد دعا صراحة إلى وجوب تنصير العالم الإسلامي . فلما عجزوا قال زويمر إن الهدف لم يكن تنصير المسلمين ، وزعم أن هذا شرف لا يستحقونه ! وإنما الهدف صرف المسلمين عن الإسلام !

[٣] راجع نص حديثه في كتاب الشيخ محمد محمود الصواف " المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام " طبع دار الاعتصام بالقاهرة ص ٥٨ – ٥٩

ولقد كان هذا أخطر ما صنعه الغزو الصليبي في الحقيقة ، وأبرع ما نجح فيه مستغلا غفلة المسلمين عن حقيقة دينهم ، والانبهار الذي أحسوه تجاه الغرب الظافر بسبب الخواء العقدي الذي كانوا يعيشون فيه .

قامت صحف ومجلات وكتاب يهاجمون " التقاليد " وينادون بضرورة تحطيمها وتخليص المجتمع من أغلالها .. ووضعوا في المطلوب تحطيمه حجاب المرأة ، والتزامها ببيتها ، وتحريم الخلوة بالأجنبية ، وتحريم العلاقات " الحرة ! " .. ووضعوا في المطلوب تطبيقه سفور المرأة وهجرها لبيتها ، ووجوب الاختلاط ، ووجوب التجربة قبل الزواج ، ووجوب إباحة العرى على الشواطئ ، وعشرات أخرى من تلك " الواجبات ! " ..

وخرجت المرأة من بيتها ، وخلعت حجابها وسفرت .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

ووقع الاختلاط ، وقامت " الصداقات " بين الأولاد والبنات .. وأصبح هذا أمرا واقعا ..

وفشت العلاقات المحرمة بين الرجال والنساء .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

وفي عالم السياسة قامت أحزاب تبعد الدين عن مجالاتها تماماً وتحرّم الخوض فيه .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

وفي عالم الاقتصاد قامت بنوك ومؤسسات ربوية تتعامل بالربا جهارا .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

وفي عالم الفكر قامت نظريات وآراء وأفكار تسخّف الدين ، وتنظر إليه على أنه خرافة وجهل وتأخر وأساطير .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

ودرس لطلاب المعاهد التربوية الذين سيصبحون معلمي الأجيال التالية نظريات فرويد التي تقرر تعارض الدين مع الصحة النفسية ، وكون الدين هو سبب الاضطرابات النفسية والعصبية ، وكون الواجب رفع " الكبت " عن الغريزة الجنسية .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

ودرس لطلاب الاجتماع نظريات دوركايم التي تقرر أن الدين والزواج والأسرة ليست من الفطرة ، إنما هي من نتاج " العقل الجمعي " الذي يتقلب بلا ضابط ، ويحرم اليوم ما أحله بالأمس ، ويحرم غدا ما يحله اليوم .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

ودرس لطلاب العلوم نظريات دارون ، والخلق الذاتي ، والتطور الخلاق ، والطبيعة الخالقة .. لا على أنها فروض علمية ولا حتى على أنها نظريات ، بل على أنها حقائق نهائية لا ينكرها إلا جاهل .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

وقام في الجامعة " أساتذة " يقولون إن القرآن من تأليف محمد – صلى الله عليه وسلم – وإن ورود القصة فيه ليس على سبيل الحقيقة إنما على سبيل " الفن ! " .. وإنه لا يجوز أن يعتبر القرآن مرجعاً تاريخياً ، وإن ورود الأسماء والوقائع فيه لا يعطيها وجوداً تاريخياً ، إنما هي أقاصيص وأساطير على عادة الأقدميين .. وأصبح هذا أمراً واقعاً ..

وعشرات من تلك الأحداث ومئات .. غيرت كلها صورة " المجتمع الإسلامي " وحولته مجتمعا مختلفا تماما .. كأنه صار – كما قال الخديو إسماعيل – قطعة من أوربا .. الإسلام فيه غريب .. والمسلمون فيه غرباء ..

* * *

كان ذلك هو " الواقع " الذي أحدثه الغزو الصليبي ليبعد المسلمين عن الإسلام بالدرجة التي يستحيل عليهم – في تصوره – أن يعودوا إليه ..

ولكنهم عادوا ! عادوا على الرغم من هذا الكيد كله ، عادوا بقدر من الله . والله غالب على أمره . وهو الذي يدبر الأمر وليس البشر ، وهو الذي ينشئ الأحداث وليس العبيد ..

عادوا .. أو بدءوا طريق العودة على أقل تقدير ..

وفوجئ العلمانيون .. وذعروا كذلك مع المفاجأة ! وكان موقفهم " الطبيعي ! " ضد الصحوة الإسلامية ، وضد المطالبة بتحكيم شريعة الله ..

إن العلمانيين هم نتاج الكيد الصهيوني الذي وجه ضد الإسلام منذ أكثر من قرن من الزمان [١] ..

وقد لا يدركون هم ذلك ! قد لا يكونون على وعي بمقدار ما أُحْدِثَ في نفوسهم من مسخ وتشويه .. فقد ركّبوا في مصانع الغزو الصليبي بحيث يرون الإسلام عدواً لهم لا بد من محاربته .. لذلك فقد يعتقدون أنهم في مواقفهم ضد الإسلام ، وضد تحكيم الشريعة ، منطلقون من ذوات أنفسهم ، وبدوافعهم الخاصة ..

ولكن .. ألا يستوقفهم ذلك التوافق العجيب بين مواقفهم ومواقف الغرب تجاه الإسلام ؟ !

الغرب هو الذي نحَّى الشريعة الإسلامية من البلاد التي وطئتها أقدامه في أثناء الغزو الصليبي ، والغرب هو الذي جند طاقته كلها لمنع العودة إلى تطبيقها مرة أخرى في بلاد الإسلام ..

والعلمانيون ؟ ما موقفهم .. ؟

أليسوا يعارضون تحكيم الشريعة في بلاد الإسلام ؟ ! ويقيمون الندوات والمؤتمرات ليؤكدوا معارضتهم لذلك الأمر ؟ !

والغرب يقولون إن " الإسلام السياسي " هوالخطر الجديد الذي يهدد العالم .. والذي يجب أن تجند له قوات الغرب ، بل قوات العالم كله !

والعلمانيون ؟ ما موقفهم .. ؟

أليسوا يقولون إن الإسلام يجب أن يبعد عن السياسة ، وإن مزجه بالسياسة ، أو انطلاق السياسة من منطلقه خطر يهدد العالم ؟ !

---

[١] الأولى أن نقول " الكيد الصليبي الصهيوني " فقد كان اليهود شركاء في التخطيط والتنفيذ ، وكانوا يعملون طيلة الوقت لحسابهم الخاص ، فقد كانوا يخططون لإنشاء إسرائيل ، وكانوا يعلمون أن العقبة أمامهم هي الإسلام ، فكل جهد لإبعاد المسلمين عن الإسلام هو في صالحهم ، ومن أجل ذلك يشاركون فيه .

والغرب وقف بشدة ضد وصول الإسلاميين إلى الحكم في الجزائر ، ونسي " ديمقراطيته " التي تقضي بأن ما تجمع عليه أغلبية الأمة يجب أن يكون هو دستورها النافذ وقانونها المطبق ، وقال : إن ذلك يصح مع أهل الأرض جميعا إلا المسلمين !

والعلمانيون .. ما موقفهم .. ؟

أليسوا قد وقفوا ضد الإسلاميين في الجزائر ، وقالوا إن " العالم الحر " يجب أن يتدخل ليحول دون هذا الخطر المخيف ؟ !

والغرب أطلق على الحركات الإسلامية لفظ " الأصولية " Fundamentalism وهي عندهم كلمة ذم لا يوجد لديهم أكثر منها ذما لصاحب فكر أو عقيدة . فهي عندهم علم على فئة من النصارى حرفية في تفكيرها ، ضيقة الأفق ، متعصبة ، لامرونة عندها ولا قدرة على التكيف بما يجدّ في الحياة من أمور .. وقد أطلقوا هذه الصفات كلها على الحركات الإسلامية يوم أطلقوا عليها هذا الوصف Fundamentalists ، ودلالتها عند الرجل الأوربي واضحة غاية الوضوح ..

والعلمانيون .. ما موقفهم .. ؟

ألم يتلقفوا تلك الصفة في الحال ويصفوا بها الحركات الإسلامية ، حتى لم يعد يجري على لسانهم عندما يتكلمون عن الحركات الإسلامية أو الاتجاه الإسلامي إلا لفظ " الأصولية " ؟ !

والغرب يتحدث ليل نهار عن " الإرهاب الإسلامي " ويصوره على أنه الخطر الكاسح الذي سيقوض أمن العالم كله ، والذي يجب أن يكافح ، وأن يجتث من جذوره ، بينما لا يتحدث أبداً عن " الإرهاب النصراني " – وقد تمثل في أبشع صوره في البوسنة والهرسك – ولا " الإرهاب اليهودي " وهو يتمثل يوميا في قتل أصحاب البلاد الأصليين وتشريدهم وتعذيبهم في السجون ومنعهم من حقوقهم الطبيعية والاستيلاء على أرضهم وديارهم وطردهم منها ، ولا " الإرهاب الهندي " الذي يمارسه عبّاد البقر على المسلمين في الهند ، ويتمثل في حرق المسلمين أحياء في قراهم ، وتهديم مساجدهم وتعقيمهم إجباريا لكي لا يتكاثر نسلهم ، ولا " الإرهاب

البوذي " الذي يفعل بالمسلمين ما يفعل في بورما ، ولا " الإرهاب الشيوعي " الذي قتل مائة ألف من المسلمين في طاجستان وطرد الباقين من بلادهم .. ولا غيرها ولا غيرها من صنوف الإرهاب ، كأن الدنيا كلها مستقيمة ملتزمة والمسلمون وحدهم هم الذين يمارسون الإرهاب .

والعلمانيون .. ما موقفهم .. ؟

أليسوا يرددون ذات النغمة فلا يكفون عن الحديث عن الإرهاب الإسلامي ، بينما يصمتون الصمت المريب عن كل ألوان الإرهاب الواقعة في الأرض ، والتي يقع أكثرها على المسلمين ؟ !

ألا يستوقفهم ذلك التوافق العجيب بين مواقفهم ومواقف الغرب تجاه الإسلام ؟ !

وكيف يتأتى أن يتطابق موقف " المسلم " من دينه وقومه مع موقف أعداء دينه وأعداء قومه ؟ !

أليس هذا عجيبا أيها العلمانيون ؟ !

ألا يوقظكم ذلك إلى مدى تغلغل " الغزو الفكري " في نفوسكم بحيث تطابقت أفكاركم ومواقفكم مع أفكار أعدائكم ومواقفهم .. ؟

بل أنتم لا تحسون أنهم أعداؤكم .. بل تعتبرونهم أصدقاءكم و رفقاءكم ..

فما قولكم في قوله تعالى (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) ؟ [١]

وقوله تعالى (وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) [٢] .

وقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [٣] .

---

[١] سورة البقرة [١٢٠] .

[٢] سورة البقرة [٢١٧] .

[٣] سورة المائدة [٥١] .

لقد آن للعلمانيين أن يكتشفوا حقيقة موقفهم .. وأن يسألوا أنفسهم : لحساب من يحاربون الإسلام ؟ !

والمستقبل .. لمن ؟ !

أثبت موقف الغرب – وموقف العلمانيين – من أحداث الجزائر ، أن عداءهم للإسلام أشد بكثير من ولائهم للديمقراطية ، وإيمانهم بمبادئها .

ونحن نؤمن من زمن بعيد أن الغرب لا أخلاق له ، وأن كل تظاهره بالقيم والمبادئ إنما هو رياء ، وتنفج بالباطل ، أو على أحسن تقدير وَهْمٌ يعيشونه في خيالهم ، ليستكملوا في داخل أنفسهم إحساسهم باستحقاقهم السيادة على الأرض ، لا بالحديد والنار فقط ، ولكن بالقيم والمبادئ أيضا ، فيما يسمونه " الحضارة المسيحية ! ! " ..

نؤمن بذلك منذ أمد بعيد . ولكن العلمانيين في بلادنا أصحاب دعوى عريضة – أو وَهْمٍ كبير – أننا نقول هذا الكلام تعصبا منا ضد الغرب ، وافتئاتا على حضارته ، وعلى قيمه ومبادئه .. التي يكفي منها إيمانه بالديمقراطية !

ثم أحداث الجزائر وتبدى لكل ذي عينين مدى إيمان الغرب بالديمقراطية ..

ثم جاء ما هو أسوأ ..

جاءت أحداث البوسنة والهرسك ، وتهرأت بشكل فاضح كل دعاوى القيم والمبادئ ، وسقط القناع .. وبدا العداء للإسلام في أقبح صورة يمكن أن تخطر على ذهن بشر .. وبدت المؤامرة العالمية ضد الإسلام والمسلمين مكشوفة بلا قناع .

والعلمانيون سادرون في وهمهم يتحدثون عن الديمقراطية ، وعن احترام " الآخر " ، ويحاكمون الإسلام إلى تلك المبادئ الزائفة التي لا رصيد لها من الواقع ..

ونترك العلمانيين ومواقفهم التي لا تستند إلى شيء من الحق . ونقول للدعاة الإسلاميين أن يتمثلوا بما أنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في موقف مشابه : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً) [١] .

---

[١] سورة النساء [٦٣] .

نترك العلمانيين ومواقفهم ونلقي نظرة إلى المستقبل .

على أي شيء تستند هذه " الحضارة " ؟

إنها – بلا شك – تستند إلى قوة مادية ضخمة ، لم تتوفر بهذه الصورة من قبل في التاريخ .

وهذه القوة المادية تشمل في أطوائها عبقرية تنظيمية هائلة ، وجلدا على العمل ومثابرة ، وجدية في تناول الأمور ، وتصميماً على الوصول إلى غايات مرسومة .. وتربية دقيقة دءوبة على هذه الخصال .

وكل هذه من أدوات التمكين في الأرض التي قال الله في كتابه العزيز إنه يمكّن أصحابها لفترة من الوقت :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ) [١]

ولكنه – بغير قيم حقيقية – تمكين مؤقت ينتهي إلى البوار ..

و "القيم الحقيقية " ليست شيئاً هلامياً يتشكل بحسب الأهواء ، فإن السنن الربانية لا تتعلق بالأهواء . ولو كان البشر هم الذين يدبرون ، وهم الذين يكتبون الأقدار ، لكان لأهوائهم ثقل في الميزان . أما وهم لا ينشئون ولا يدبرون ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو الفعال لما يريد ، فإنا المعايير التي حددها الله سبحانه هي التي تجري بمقتضاها السنن الربانية التي تقرر مصاير الناس في الأرض ..

و " القيم الحقيقية " المعتبرة في ميزان الله ، والتي تجري بها السنن الربانية ، هي الإيمان بالله الحق ، والإيمان بالدين الحق ، والعمل الحقيقي بمقتضى المنهج الرباني ..

وأوربا قد " نسيت " ذلك كله منذ أمد بعيد ..

---

[١] سورة هود [١٥] .

والله سبحانه وتعالى يقول : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [١]

فالتمكين الذي عليه الغرب اليوم يجري بمقتضى السنن الربانية . والبوار الذي ينتظر الغرب – ما لم يغيروا ما بأنفسهم – يجري كذلك بمقتضى السنن الربانية :

(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [٢]

(.. فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) [٣]

والذين يستبعدون انهيار " الحضارة الغربية " ، ويوسوس لهم الشيطان أن الله لا يمكن أن يدمر عليهم ، وهم يملكون هذا القدر الهائل من أدوات التمكين ، نحيلهم إلى أكبر انهيار في التاريخ ، لأكبر قوة طاغية في التاريخ ، وهي قوة الشيوعية متمثلة في " الاتحاد السوفييتي " الذي انهار كأنما في لحظات ..

والغرب دوره في الطريق ..

لن تمنعه قوته المادية ولا الحربية ولا السياسية عن مصيره المقدر في سنة الله :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [٤]

وحين تنهار هذه " الحضارة " الجاهلية فما البديل ؟

البديل هو الحضارة الإسلامية ..

والإسلام – وحده – هو الذي يملك أن يُخرج البشرية من ظلماتها الحالية إلى النور ..

---

[١] سورة الأنعام [٤٤ – ٤٥] .

[٢] سورة الأنعام [١١٥] .

[٣] سورة فاطر [٤٣] .

[٤] سورة يونس [١٤] .

ليس البديل مزيدا من القوة المادية ، ولا القوة العلمية ، ولا القوة الحربية ، ولا القوة السياسية ، وإن كان هذا كله من الأدوات اللازمة للتمكين في الأرض . ولكنه – وحده – لن يحل شيئا من مشاكل البشرية الحالية !

بل إنه إذا وجد – وحده – فسيؤدي إلى مزيد من الصراع ، دون حل جذري للفساد القائم في الأرض . والمتوقع أن يحدث هذا الصراع في الغد القريب بين أمريكا التي توشك على الانهيار – رغم مظهرها الفاره – وبين ألمانيا ، أو بينها وبين ألمانيا وفرنسا المتحالفتين ضدها ، أو بينها وبين الكتلة الأوربية المحتشدة في السوق الأوربية المشتركة أو بينها وبين اليابان ، أو بينها وبين الصين .. وشيء من ذلك كله محتمل في المستقبل القريب ، وحين يحدث فلن يزيد الناس إلا خبالا ، وإيغالا في الانحراف .. الغالب والمغلوب سواء !

البديل المطلوب هم " القيم " المفقودة في عالم اليوم ، والتي يؤدي فقدانها إلى الأحوال السيئة التي تسود عالم اليوم .

الظلم السياسي الذي يسود عالم اليوم مبعثه وجود القوة في يد قوم قالوا منذ البدء إن الله لا علاقة له بواقع الحياة الدنيا ، وإن " الإله " المتصرف في واقع الأرض هو الإنسان . وحين رفض ذلك الإنسان أن يكون عبداً لله في شئون الدنيا كما هو في شئون الآخرة أصبح عبداً لهواه ، وعبداً لشهواته : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [١] ، فاستبد وطغى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) [٢] ، وأصبح القانون الذي يحكم الأرض هو قانون الغاب : القوي يأكل الضعيف . وشكلت الوحوش " العظمى " هيئات دولية تضفي بها الشرعية على جرائمها ، وتمنع توقيع الجزاءات على ما ترتكبه من العدوان ، وفي الوقت ذاته تلهّى بها الضعفاء المأكولين ، فيظنون – وهم بين مخالب الوحش – أنهم يشاركون في صنع القرار ! !

---

[١] سورة الفرقان [٤٣] .

[٢] سورة العلق [٦ – ٧] .

والظلم الاقتصادي الذي يسود عالم اليوم مبعثه الرأسمالية الربوية التي رفضت أمر الله ابتداء بتحريم الربا ، فأنشأت نظاما يأكل فيه القوي الضعيف في عالم الاقتصاد كما يأكله في عالم السياسة . واستبد الأقوياء اقتصاديا بالضعفاء فامتصوا جهدهم ودماءهم ، وحولوهم خدماً لهم وتبعا ، يسخّرونهم " لمصالحهم " ويمنون عليهم أن تركوهم يحيون إلى جانبهم .. وإنها لحياة الهُون .

والفساد الخلقي الذي يسود عالم اليوم مبعثه إنكار حق الله في وضع " الحدود " التي تضبط تصرفات البشر ، وإعطاء هذا الحق للبشر بدعوى أنهم أدرى بمصالحهم من خالقهم سبحانه ! ومبعثه كذلك أن الآخرة قد امّحت من حسهم فصارت الحياة الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ، فانفلتت الشهوات من معقلها ، لأنه لا يعقلها إلا الإيمان بالله واليوم الآخر .

وكذلك كل ألوان الفساد الموجود في الأرض من التمييز العنصري ، إلى الحروب إلى الخمر إلى المخدرات إلى الجريمة إلى الزيغ العقدي إلى الزيغ الفكري إلى الزيغ " الفني ! " إلى ألوان الجنون المختلفة من جنون الكرة إلى جنون الجنس إلى جنون التليفزيون إلى جنون الفيديو إلى جنون " المودة " إلى جنون السرعة إلى جنون العظمة الذي يحتل رءوس الطغاة وكبار المجرمين ..

كله يرجع إلى سبب رئيسي واحد ، هو استكبار الإنسان المعاصر عن عبادة الله واتخاذه إلهه هواه ..

وليس هذا تبسيطا للأمور كما يحلو لبعضهم أن يفكر .. إنما هي الحقيقة التي أكدها كلام الله في الكتاب المنزل ، وأكدتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

والمنهج المقابل لذلك الفساد كله هو الإسلام .

وليس الإسلام – كما قلنا دائما – كلمة تنطق باللسان فحسب ، وليس وجدانا مستسرا في الضمير فحسب . بل هو منهج حياة كامل ، يشمل كل جوانب الحياة العقدية والأخلاقية والفكرية

والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقولية والعملية ، ويضبط كل ذلك بالضوابط الربانية ، فيقوم الناس بالقسط ..

الإسلام هو المنهج الذي يصلح الفساد الذي أنشأه البعد عن الله ..

هو الدين الذي يغذي جوعة الروح . فللروح جوعة لا تستقر إلا بالإيمان بالله :

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [١]

ويبارك نشاط الجسد ونشاط العقل ما داما منضبطين بالضوابط الربانية .

ويوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح . ومطالب الدنيا ومطالب الآخرة .

الدين الذي يحث على " العلم " وعلى عمارة الأرض ، ويجعل ذلك جزءا من عبادة الله ..

الدين الذي يمحو فوارق الجنس وفوارق اللغة وفوارق اللون ، ويتعامل مع الإنسان من حيث هو إنسان .

الدين الذي يكرّم الإنسان ، ويضعه في أحسن حالاته حين يعبد الله وحده فيتحرر من عبادة كل الآلهة المدعاة .

الدين الذي ينشر العدل في الأرض لأنه يحرم الظلم ويأباه ، ويحض المؤمنين على الجهاد لإزالة الظلم من الأرض وإقامة القسط بصرف النظر عن اختلاف الجنس أو اللغة أو اللون .. أو الدين ..

يكفي أن نقول : هو المنهج الرباني ، وما عداه هو المناهج الجاهلية .

* * *

ولكن المنهج الرباني لا يعمل وحده .. إنما يعمل من خلال البشر الذين يؤمنون به .

---

[١] سورة الروم [٣٠] .

كما أن البشرية لن تتعلمه ، ولن تحبه وتؤمن به بمجرد أن تقول لها : هذا هو المنهج الرباني ، وهو خير من مناهج الجاهلية !

إنما تؤمن به وتحبه حين تراه مطبقا في واقع يشهده الناس بالفعل ، ويرون ما فيه من " اعتدالات " واستقامات في مقابل انحرافات الجاهلية واعوجاجاتها ..

فمن يقوم بذلك اليوم .. فينقذ نفسه ، وينقذ البشرية ؟ !

من إلا المسلمون ؟

والمسلمون كما قلنا بدءوا يعودون إلى دينهم الذي كادت تنقطع صلتهم به تحت ضغط الغزو الصليبي والغزو الفكري ..

ولكن المشوار ما زال طويلا أمامهم لكي يحققوا الصورة الحقيقية للإسلام .. بمقدار البعد الذي كانوا قد بعدوه عن حقيقة الإسلام .

ولن يتوقع أحد – و لا يحدث أبدا – أن تكون الأمة كلها ، بكل فرد فيها على المستوى المطلوب . فإن مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم ذاته لم يكن كله على المستوى ولم يكن كله أبا بكر وعمر رضي الله عنهما .. ولكن كانت فيه مع ذلك قاعدة صلبة من المؤمنين ذوي المستوى الرفيع الفائق ، هم الذين ربَّوا الأمة عن طريق القدوة ، وهم الذين قام عليهم البناء .

وهذه القاعدة هي المطلب العاجل للدعوة ، ولا نستطيع أن نقول بعد إنها تكونت على المنهج المطلوب .

ولننظر في بعض الصفات التي استحقت بها القاعدة الأولى النصر من عند الله ، كما وردت في سورة الأنفال :

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ...) [١]

فتلك صفات أربع ، تحققت في القاعدة التي بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحقت بها النصر من عند الله : الإيمان ، وناهيك بذلك الإيمان الفذ . وتآلف القلوب . والتجرد لله . والاستعداد لخوض القتال حين تدعو الدواعي إليه ..

فإلى أي حد حققنا تلك الصفات في العمل الإسلامي ، فضلا عن صفات أخرى وردت في سور أخرى من كتاب الله [٢] ، وكانت كلها من المؤهلات التي استحقت بها الجماعة الأولى النصر من عند الله ، والتمكين في الأرض حسب وعده تعالى :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [٣]

المشوار طويل .. ونحن لا نستبطئ المسيرة ، ولا نستعجل الوصول ، لأننا نعلم أن عقبات كثيرة تقف في الطريق .. وليس كيد الأعداء هو أكبر العقبات كما يجري على ألسنة كثير من الدعاة أنفسهم ، إنما الغربة التي حاقت بالإسلام هي العقبة الأولى والكبرى ، لأنها تحوجك أن تعرّف الناس بالإسلام من جديد ، كأنه بعد جديد ! وتحوجك أن تقنع الناس أن ما عليه أكثرهم – إلا من رحم ربك – ليس هو حقيقة الإسلام ، وأن ألوانا كثيرة من الشرك يقع الناس فيها وهم لا يشعرون ، سواء شرك الاعتقاد أو شرك العبادة أو شرك الاتباع .. وما لم يقتنع الناس فلن يغيروا ما هم عليه ، ولن يغير الله لهم حتى يغيّروا ما بأنفسهم :

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [١]

---

[١] سورة الأنفال [٦٢ – ٦٥] .

[٢] راجع بصفة السور الأربع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة .

[٣] سورة النور [٥٥] .

فإذا أضفنا إلى ذلك كيد الأعداء بكل أنواعه ، سواء جهود العلمانيين في مقاومة التيار الإسلامي وتشويه صورته وتنفير الناس منه ، أو ملاحقة الحركات الإسلامية داخل العالم الإسلامي بالسجن والتشريد والتعذيب والقتل ، أو الكيد العالمي ، الصليبي الصهيوني الوثني ضد الإسلام والمسلمين ، فقد زادت الشقة بعدا وزادت المشقة على الدعاة ..

ومع ذلك كله فالمستقبل للإسلام ..

المستقبل للإسلام لأن هذه إرادة الله ، والله هو الذي يقرر ، وهو الذي يقدّر ، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون :

(سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [٢]

لقد غفا المسلمون قرنين أو ثلاثة .. واستغل الأعداء هذه الغفوة الطويلة فجاسوا خلال الديار ، ومزقوا العالم الإسلامي شر ممزق ، ودفعوه إلى التيه ، وإلى الضياع ..

ولو كان في قدر الله أن ينتهي الإسلام من الأرض فقد كانت الفرصة مواتية للأعداء ، وهم في أوج قوتهم ، والمسلمون في حضيض ضعفهم .

ولكن الله البرّ الرحيم لم يشأ ذلك ، وإنما بعث للناس من يجدد لهم أمر دينهم كما وعد سبحانه ، فكانت تلك الصحوة المباركة التي بدأت توقظ الناس .

وفي الوقت ذاته بدأ الغرب طريقه إلى الانهيار ، حسب السنة الربانية التي لا تتبدل ولا تتحول ..

بدأ ينهار لأن حضارته غير الإنسانية قد فقدت مبررات وجودها فضلا عن استمرارها .

" الحضارة " التي ترتكب كل هذه الخسة الجماعية في البوسنة والهرسك دون أن يهتز ضميرها بخالجة من حياء .. الحضارة التي لا يتحرك ضميرها لردع أي معتد يعتدي على

---

[١] سورة الرعد [١١] .

[٢] سورة مريم [٣٥] .

المسلمين ، بل تشجعه إما بالسكوت على جرائمه وإما بإمداده سرا وعلانية بالمال والسلاح ، في الوقت الذي يفور غضبها ويحتدم لا نقول إذا اعتدى المسلمون ، بل إذا تمكنوا من رد العدوان ! .. الحضارة التي تبيح الفاحشة حتى تصبح أصلا من أصول الحياة ، ثم تبيح الفاحشة الشاذة وتمنحها " الشرعية ! " .. ثم تسكت على زنا المحارم ، أقذر ما يمكن أن يرتكبه بشر .. الحضارة التي تبيح التهجم على كل المقدسات حتى ذات الله سبحانه ، فضلا عن رسله ورسالاته وكتبه ودينه بحجة " حرية الفكر " ! الحضارة التي تُعبِّد الإنسان لشهواته ، وتعبّده للمادة ، وتعبّده للآلة ، وترفض في الوقت ذاته أن تعبّده لإلهه ، بحجة " حرية العبادة ! " أو " حرية الضمير ! " .. الحضارة التي تجعل بياض البشرة " قيمة " من القيم ، في الوقت الذي لا تعتبر بياض القلوب والمشاعر أمراً له وزن في حياة الناس ..

هذه الحضارة لا تملك مؤهلات الوجود فضلا عن الاستمرار ، ولو ملكت كل أسلحة الدمار ، وكل أسلحة العلم ، وكل فنون التقدم المادي .. فكل هذه لا تعيش بغير القيم الربانية إلا ريثما يحين قدرها المقدر عند الله .

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً) [١]

* * *

نعم .. ولكن ..

هل الحركات الإسلامية القائمة في الأرض اليوم مؤهلة لأن تقوم برسالتها العظمى تجاه نفسها وتجاه البشرية ؟

هل تمكنت من تربية القاعدة المطلوبة على المستوى المطلوب ؟

هل تآلفت قلوبها واجتمعت كلمتها ؟

هل تجردت لله حتى نسيت ذاتها ؟

---

[١] سورة الكهف [٥٩] .

هل اكتسبت من البصيرة السياسية والحركية ما يمكنها من السير في الطريق الوعر الذي يحيط به الأعداء من كل جانب ، متربصين كالوحوش الكاسرة التي تنتظر الفريسة ؟

هل اتضحت لها أهدافها ، ورتبت أولوياتها ، وعرفت حدود طاقتها ، فتحركت في حدودها ؟

أم ما زال ينقصها الكثير حتى تصبح على المستوى المطلوب ؟

وإذا بقيت على فرقتها وشتاتها ونقصٍ في تربيتها وغبشٍ في رؤيتها .. إلا من رحم ربك .. فهل تصلح أن تكون هي البديل الذي ينقذ البشرية من جاهليتها المعاصرة ؟ لا نقول نعم ، ولا نقول لا .. فذلك غيب موكول إلى الله ..

إنما نتحدث هنا عن السنن الربانية ، وعن وعد الله ووعيده ، فهذه هي " الثوابت " التي تحكم " المتغيرات " .

نقول إن البشر لا يعجزون الله .. (إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً) [١]

فأما الغرب – بكل قوته المادية – فلن يعجز الله ، لأن الله أكبر .. أكبر من كل كيدهم ، ومن كل قوتهم .

وأما المسلمون – بكل سلبياتهم – فلن يعجزوا الله ، لأن القدرة قدرته جل وعلا ، والقوة قوته ، والأسباب أسبابه ، وهو الذي قال سبحانه : (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [٢]

وهو الذي وعد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالجولة الممكّنة للإسلام بعد أن تقع المعركة الكبرى بين المسلمين وبين اليهود :

---

[١] سورة الطلاق [٣] .

[٢] سورة محمد [٣٨] .

قـال عليـه الصـلاة والسـلام : " لا تقـوم السـاعة حتـى يقاتـل المسـلمون اليهـود فيقـتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ... " [١]

وإرهاصات المعركة على الأبواب ، ويجيء بعدها النصر والتمكين لدين الله .

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [٢]

والـذين يحـاربون الله ورسوله خيـر لهم أن يكفوا عن هذه الحـرب لـو كـانوا عقـلاء ، فهـي حرب خاسرة في النهاية مهما كسبت من جولات في مبدأ الأمر ، فإنما يملي الله لهم ليزدادوا إثما ، وليمحص الله الذين آمنوا :

(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) [٣]

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) [٤]

ولقد مر وقت على هذه الأمة كان الإسلاميون فيه يَسْبَحُون ضد التيار ، لأن تيار الغزو الفكري كان هو الكاسح الذي يجرف الناس أمامه بعد أن أصبحوا غثاء كغثاء السيل ..

واليوم يحس العلمـانيون أنهم هم الـذين يسبحون ضد التيـار ! وأن التيـار الجـارف ، تيـار الشبـاب ، متجـه إلـى الإسـلام .. فيحاولون بكـل جهدهم أن يغيروا الاتجاه ، ليعيدوه إلـى الوضـع

---

[١] أخرجه مسلم .

[٢] سورة الصف [٩] .

[٣] سورة آل عمران [١١٨] .

[٤] سورة آل عمران [١٤١] .

الذي نشئوا وتربوا فيه ، وركّبوا في مصانع الغزو الصليبي ليستريحوا إليه ويجدوا أنفسهم فيه .. (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً) [1]

[1] سورة النساء [٦٦] .

الفهـرس